وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة يحي فارس – المدية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية



قسم: العلوم الإنسانية
شعبة: التاريخ

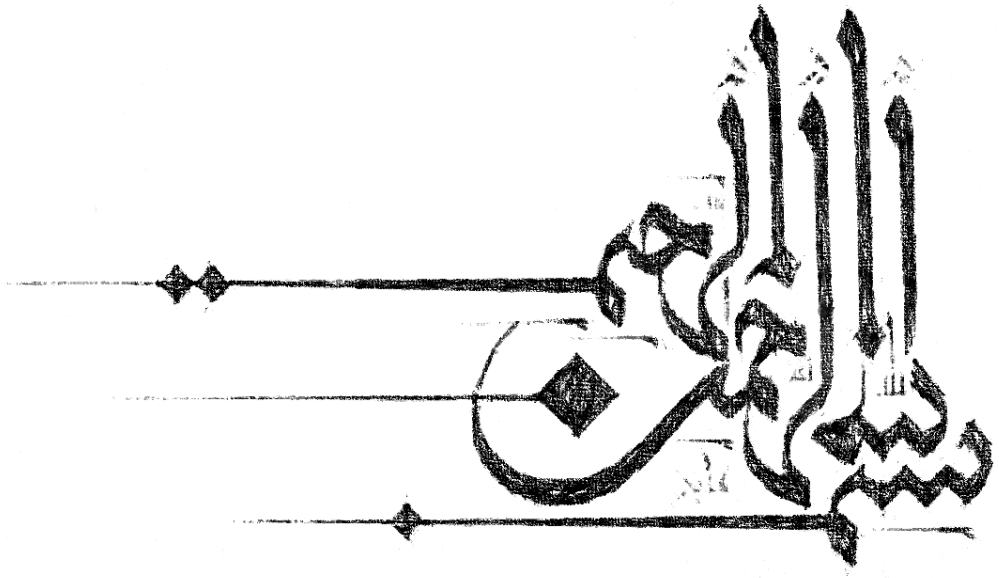
ذهنيات سكان المغرب الأوسط من خلال كتاب البستان لابن مريم التلمساني

مذكرة مقدمة للحصول على شهادة الماستر في تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

إعداد الطالبتين:
مريم جربوع
مريم بوقصة

إشراف:
د. كرطالي أمين

السنة الجامعية: 1442 - 1443 هـ / 2021 / 2022م



إهداء

أهدي خلاصة جهدي إلى مدرستي الروحية والدي الكريمين

كنز الدعوات وفيض العطاء حفظهما الله لي فخرا ما حييت

وأدامني على طاعتهما ورد جميلهما

أبي حبيبي وأمي غاليتي

إلى الأسرة الصغيرة أخي محمد و زوجته بشيرة و ابنته نور أعيننا يقين

إلى من دخلا القفص الذهبي حديثا أختي صبيحة وزوجها إسحاق

إلى توأمي الذي قاسمني بطن أمي سارة دمت لي

إلى أختي هاجر وفقك الله

إلى صغير أسرتنا عبد الجليل حبيب قلبي

إلى من شاركتني الحياة الجامعية بحلوها ومرها إلى آخر محطة منها

حبيبة قلبي بوقصة مريم

إلى أولئك الذين كانوا لي سندا وعونا في حياتي ودراستي

مريم جربوع

إهداء

إلى صاحب الفضل العظيم

جدي إسكندر علي رحمه الله

إلى روح والدتي

عسى الله أن يمنحها الدرجات العلى من جناته

إلى سندي عند السقوط أخوالي و خالاتي

توأمي وروحي سارة

أخي عمر ملجئي عند الصعاب

أختي وعائلتها الصغيرة أولادها شباب المستقبل يونس وسامي

أخواتي، بنات خالي سلمى، أسماء، فاطمة الزهراء

رفيقة الدرب مريومتي

إيمان غاليتي

أهدي ثمرة جهدي المتواضع عسى الله أن يكتبه من الحسنات

مريم بوقصة

شكر وتقدير

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك وذكرك

الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات

والصلاة والسلام على نبي الرحمة ونور العالمين

سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم

عرفانا بالجميل نتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذنا الدكتور كرطالي أمين الذي قام بالإشراف على هذا البحث، وتعهده بالرعاية العلمية، فكان لنا نعم القدوة بفضل توجيهاته وتشجيعاته وكذا بفضل إخلاصه وتواضعه في المعاملة.

ندعو القدير بكلماته التامات وصفاته العلى أن يمن عليه بوافر الصحة والعافية وأن يسبغ عليه نعمه ويبارك في عمره.

قائمة المختصرات

الاختصار	المعنى
ت	المتوفى
تح	تحقيق
ج	الجزء
ص	الصفحة
م	ميلادي
هـ	هجري
د ت ن	دون تاريخ نشر
د ط	دون طبعة
ط	الطبعة
/	فاصل بين التاريخ الهجري والميلادي

المقدمـــة

المقدمة

عرفت الدّراسات التّاريخية تحوّلات هامّة من حيث مواضيع الدّراسة وكذا المناهج المتّبعة، فلم يعد التّاريخ مجرّد سرد للأخبار والحوادث، أو رصد لأهمّ الصّراعات والمعارك، كما أنّه تجاوز ما يُعرف بتاريخ السّلالات والأعلام والطّبقات النّبيلة، مُلقيا الضّوء أكثر على جزئيات هامّة لا يخلو منها الإنسان عبر مختلف الأقطار والأزمنة.

ومن جملة المواضيع التي صار البحثُ فيها شيّقا، والخوض فيها غضّا طريّا نجد موضوع "التأريخ للذّهنيات والأفكار" والذي بدأت حديثا تظهر له عدد من الدراسات الجادّة التي أرّخت للذهنيات وأبدت اهتمامها بما يميّز مجتمع بلاد المغرب من أفكار واعتقادات.

إنّنا في حاجّة ماسّة إلى هكذا دراسات نُنير بها أبصارنا، ونكشف من خلالها أسرار ساكنة العصر الوسيط، خصوصا في بلاد المغرب الأوسط. والمادّة المصدرية متوفّرة لمن أراد البحث التّنقيب، خصوصا كتب المناقب التي نجد بين ثناياها معلومات ثمينة.

يُعدّ كتاب "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان" لمؤلفه "ابن مريم المليتي المديوني التلمساني" (كان حيا سنة 1025هـ)، من أهمّ وأبرز الكتابات المناقبية التي تحمل رصيدا ثقيلا حول حياة العلماء والمتصوفة وكذا بقية طبقات وفئات المجتمع.

إنّ هذا المرجع المهم الذي يتحدّث بشكل موسّع عن عدد من متصوّفة المغرب الأوسط عموما في أواخر العهد الزياني(القرن 9_10هـ/15_16م) قد أحببنا أن يكون عليه مدار بحثنا الذي يحمل عنوان" **ذهنيات سكان المغرب الأوسط من خلال كتاب البستان لابن مريم التلمساني**"

وقد قيل قديما، المقصود من التأليف سبعة: شيء لم يسبق إليه فيؤلف فيه، أو شيء أُلِّف ناقصا فيكمل ، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح ، أو مطول فيختصر، أو مفرّق فيجمع

أو منثور فيرتب، ومن البديهي أنه من غير المعقول أن نجمع كل هذه المقاصد في بحثنا إلا أننا يمكن أن نحدد الهدف من البحث في دافعين، موضوعي وشخصي.

بالنسبة للدافع الموضوعي فإن الحديث عن الذهنيات المتعلقة بظاهرة الولاية وما أحدثته من تغييرات تُعدّ مجالا خصبا وإضافة جديدة للبحث، فكانت لنا الفرصة من خلال هذا البحث البسيط أن نلِج هكذا ميدان.

أما الدافع الشخصي، فهو الاهتمام الذاتي بكل ما يتعلق بالجانب الاجتماعي والفكري لتاريخ المغرب الأوسط، وما أثارته ظاهرة الولاية في حفيظتنا من تساؤلات خاصة وأن تأثيراتها ممتدة إلى عصرنا الحالي في ثقافتنا الشعبية، فانتهزنا الفرصة لمعرفة كل ما يتعلق بها في إطار بحث أكاديمي منظم.

تتجلى أهمية الموضوع في أنه يسعى إلى تفسير كثير من المظاهر والسلوكيات والعادات والتقاليد والأفكار التي سيطرت أواخر العهد الزياني، أي خلال القرنين التّاسع والعاشر هجريين (15-16م)، وقد حاولنا أن نميط اللثام ولو بالقليل عن هذه الجوانب المهمّة من خلال تفكيكنا للمادة التاريخية التي تركها لها صاحبُ البستان، فلعلّ هذه الدّراسة تكمن أهميتها في الوصول بنا إلى معرفة مدى تأثير ظاهرة الولاية في جميع طبقات المجتمع وكذا الفعاليات المرتبطة بهذا المجتمع، وكيف أن ساكنة المغرب الأوسط ربطوا كل ما يتعلق بحياتهم بالاعتقاد في المتصوفة والأولياء الصالحين.

على ضوء ما سبق يمكننا أن نكتُب حول هذا الموضوع من خلال الإجابة على الإشكالية التالية:

ما هي أهمّ الذهنيّات التي سيطرت على ساكنة المغرب الأوسط أواخر العهد الزياني والتي كشف عنها كتاب البستان لابن مريم؟

إضافة إلى هذه الإشكالية سنحاول الإجابة عن التساؤلات الفرعية الآتية وهي:

- كيف انعكس الفكر الصوفي على الحياة الاجتماعية والفكرية؟
- ما هي أبرز المظاهر السلوكية التي طبعت الحياة أواخر العهد الزياني؟
- ما هي أبرز العادات والتقاليد التي أشار إليها بستان ابن مريم؟

لا بد للباحث حتى ينجز بحثه أن يستند إلى دراسات سابقة، تمثل له مصابيح الطريق حتى يستطيع أن يلم بجميع حيثيات بحثه بأساس منهجي وعلمي سليم، وبالنسبة لنا فإن أهم الدراسات السابقة التي وجدنا فيها ضالتنا تتمثل في:

1. أطروحة الدكتوراه الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14_15 الميلاديين للطاهر بونابي السنة الجامعية 2008_2009 ، التي تعتبر مثل حجر الأساس في بحثنا حيث امدتنا بكل المعلومات المتعلقة بالتصوف ، وذلك لتقاطعها مع عنوان بحثنا في الإطار الزماني والمكاني والموضوعي، وهي دراسة موسعة قام فيها الباحث بعرض كل ما يتعلق بظاهرة التصوف في تلك الفترة.

2. كتاب ظاهرة الولاية وتأثيراتها على مجتمع المغرب الأوسط فيما بين القرنين (6_9هـ/12_15م) الصادر سنة 2017 لمنصور بختي دحمور، من أهم الدراسات الحديثة التي اهتمت بظاهرة الولاية كظاهرة سوسيولوجية لها تاثير نفسي وثقافي واجتماعي على المغرب الأوسط، يشترك هذا الكتاب مع موضوع بحثنا في عدة جوانب أولها الاطار الزماني والمكاني ، وحيثيات الموضوع المتعلقة بالولاية وتأثيرها في الذهنيات.

3. مذكرة ماجستير الفقهاء والحياة السياسية في المغرب الأوسط خلال القرنين (9_10هـ/15_16م) للسنة الجامعية 2013_2014 لكرطالي امين ، افادتنا هذه المذكرة في معرفة العلاقة بين الفقهاء والحكام ، وفي جانب المرجعية الفكرية للفقهاء الذين تبنون اراء مختلفة حول السلطة والحياة السياسية

4. أطروحة دكتوراه المجتمع التلمساني الزياني دراسة للعادات والتقاليد والأعراف من القرن 7هـ/13م حتى القرن 10هـ/16م لعبد العالي غزالي السنة الجامعية 2022/2020 ،

افادتنا هذه الاطروحة كثيرا في جانب الحياة الاجتماعية وعادات الأكل والاحتفال والاســـرة ومختلف الظواهر الاجتماعية السائدة آنذاك.

5. رسالة ماجستير الكرامة الصوفية في منطقة تلمسان دراسة انثروبولوجية سيميائية من خلال مدونة ابن مريم البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان لحكيم ميلود السنة الجامعية 1997_1998، هذه الرســـالة ذات صـــلة وثيقة بموضـــوع مذكرتنا فقد اعتمت على نفس المصدر محل الدراسة ، إضافة إلى انها اهتمت بموضوع الكرامات، وطبقنا نفس منهجها في تحديد أنواع الكرامات.

أما المنهج المتبع في هذه الدراســـة هو المنهج التاريخي القائم على التحليل والوصـــف وأيضـــا المنهج التحليلي الذي يكمن في دراسـة ما جاء في كتاب البسـتان من تراجم ومحاولة اسـتخراج كل المعلومات المتعلقة به لتوظيفها وفق ما يناسـب بحثنا، والمنهج الوصـفي تجلى من خلال التعرف على تركيبة مجتمع المغرب الأوســـط ونمط تفكيرهم ومعيشـــتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

لمعالجة الإشكالية السابق ذكرها والإجابة عنها، قمنا بتقسيم بحثنا إلى أربعة مباحث أولها مبحث تمهيدي إلى جانب مقدمة وخاتمة.

فالمقدمة احتوت عناصـرها الأسـاسـية من تمهيد للموضـوع وأهميته ودوافع دراسـته وطرح للإشكالية وعرض لاهم المصادر والمراجع التي وظفت فيه.

أما المبحث التمهيدي فقد احتوى على تعريف موجز لابن مريم وكتابه إضافة إلى الكتابة المناقبية وعلاقتها بالتاريخ.

ويأتي بعده المبحث الأول الموسـوم بالذهنيات وجدلية الحياة والتصـوف، الذي جاء في أربعـة مطـالـب، تحـدثنـا فيـه عن المرجعيـة الفكريـة كمطلـب تمهيـدي حتى نتمكن من فهم المنظومة الفكرية لمختلف طبقات المجتمع، اما المطلب الثاني عنوانه التصـوف والجنوح إلى حياة الزهد تكلمنا فيه عن تحول من الحياة العادية إلى حياة الزهد ومظاهر هذا الزهد عند الاولياء والعامة ورأي الفقهاء فيه. ويليه المطلب الثالث بعنوان الزهد عند النســـاء والمطلب

الأخير الذي تناول الذهنيات المتعلقة بالسلاطين ونظرة العلماء والاولياء إلى السلطة والحياة السياسية.

أما المبحث الثاني الذي جاء بعنوان الذهنيات وتقديس الشـــيوخ وتقليدهم فتناولنا فيه كمطلب اول جزئية الطقوس الصـــوفية وصـــناعة المريد أما المطلب الثاني حول الذهنية السائدة في تقديس شيوخ الطرق الذي أدى إلى الجنوح للتقليد وهو ما تضمنه المبحث كمطلب ثالث ، فيما المطلب الرابع تحدثنا في المطلب الرابع عن الاجازات الصوفية كوسيلة لضمان استمراريه السلطة الروحية للشيخ على المريدين.

ثم المبحث الأخير المعنون بالذهنيات والحياة الاجتماعية ، والذي قســـمناه هو الآخر إلى ثلاثة مطالب، تحدث المطلب الأول عن الذهنيات والأســـرة وكيف كان للولاية تأثير في كل ما يتعلق ببناء الأســـرة وما يرتبط بها، أما المطلب الثاني الذي عنوناه ب "مبادئ التربية وطرائق التعليم" والذي تحدثنا فيه عن تأثيرات التصـــوّف في طرق ومواضـــيع التعليم في تلك الفترة.

أمّا المطلب الأخير فتناولنا فيه العادات والتقاليد وكل ما يتعلق بفعاليات المجتمع من أكل واحتفالات وربط مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية بالولاية.

أما الخاتمة فقد تضمنت مجمل النتائج التي توصلنا اليها من خلال دراسة مختلف الجزئيات المتعلقة ببحثنا ، وأُتبعت الخاتمة بملاحق تدعّم ما جاء في البحث.

اعتمدنا في بحثنا على مجموعة من المصادر، بحيث تنوعت مادتهم العلمية لتفيدنا في مختلف جوانب البحث، والتي نذكر منها حسب أهميتها بالنسبة لبحثنا:

1. **كتب التصوف:**

- **عدة المريد الصادق:** لأحمد بن احمد بن عيسى البرنسي الفاسي (ت899هـ)، من أهم الكتب المتعلقة بالصـــوفية، فقد بين الأخطاء التي يقع فيها الصـــوفية الذين انحرفوا تعاليم الدين، كما أمدّنا أيضـــا بمعلومات وفيرة عن المريدين وعلاقتهم بشـــيوخهم، وما يلزم للمريد أن يقوم به من واجبات، وقراءة للأوراد وأدب عند حضور المجالس وغيرها.

2. **كتب المناقب:**

- **كتاب البستان:** وهو لبّ موضوعنا والمصدر الذي تتمحور حوله دراستنا، وسنفرد له مبحثا خاصا.

- **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الاربعة المتأخرين:** لابن صعد التلمساني(ت 901هـ/1399م) يعطينا هذا الكتاب صورة واضحة لعلمين من اعلام تلمسان وهما احمد بن الحسن الغماري والشيخ حسن أبركان ، اللذان كانا ذو وقع قوي على المجتمع، واعتبرا رمزا للتدين الشعبي تلك الفترة.

3. **كتب النوازل:**

- **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى اهل افريقية والاندلس والمغرب:** أبو العباس الونشريسي(ت 914هـ/1508م) عالجت هذه المدونة الفقهية العديد من الفتاوى التي لها صلة بالحياة الاجتماعية ، وقد حضيت تلمسان بحظ وافر منها، وبالتالي ساعدنا كثيرا في هذا الجانب.

4. **كتب التاريخ السياسي:**

- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:** يحي ابن خلدون (ت 780هـ/1378م) يعد هذا المصدر من أهم الكتب التي أرّخت للدولة الزيانية وحكامها ، والحياة داخل البلاط السلطاني ومظاهرها ، إضافة إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي ميزت تلك الفترة .

5. **كتب الجغرافيا:**

- **الروض المعطار في خبر الاقطار:** محمد عبد المنعم الحميري(ت 900هـ/1495م) عبارة عن معجم جغرافي ضخم، مرتب أبجديا ، إلى الجانب الوصفي الجغرافي ، يضيف ابن حوقل تاريخ كل اقليم يذكره ، أما ناحية الاستفادة من هذا المصدر كانت في التعريف ببعض المدن التي وردت في متن البحث.

واجهتنا أثناء اعداد بحثنا بعض الصـــوبات المتعلقة بالمادة العلمية، فبســـبب وفرة المادّة العلمية حول التصـــوّف والحركة الفكرية وتنوّعها وجدنا بعض الصـــعوبة في التحكم فيها، كما أن بعض المصـــطلحات الصـــعبة المتعلّقة برموز وعبارات التصـــوّف والتي صادفناها لأوّل مرّة حتّمت علينا بذل مزيد من الجهد للإحاطة بجوانب الموضوع.

وفي الأخير نتمنّى أن تكون هذه الدّراسـة قد وفّت بالمطلوب وأضـافت شـيئا إلى البحث التاريخي المتعلّق بتاريخ المغرب الأوسط.

المبحث التمهيدي

التعريف بابن مريم وبستانه

* التعريف بابن مريم التلمساني
* التعريف بكتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان
* الكتابة المناقبية وأهميّتها في الكتابة التاريخية

المطلب الأول: التعريف بابن مريم التلمساني

1_مولده ونسبه:

هو محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني. ولد بتلمسان في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) من عائلة تنتسب إلى أشراف مليتة[1]، وقد عرف عن نفسه في مقدمة كتابه "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان" بقوله: "**يقول عبيد الله سبحانه محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم المليتي نسبا، المديوني نجارا[2]، التلمساني منشأ ومولدا ودارا لطف الله به بمنه وكرمه آمين.**" [3]

اهتمت بعض المصادر المتأخرة بالترجمة لابن مريم التلمساني، إلا أن معظمها جاء مختصرا، وذلك لعدم توفر المعلومات الكافية عن حياته. حيث ذكر عادل نويهض في كتابه معجم أعلام الجزائر أن الترجمة الوحيدة الكاملة نجدها عند تلميذه عيسى بن محمد بن يحي الراسي البطوئي السعيدي(ت 1040 هـ_1630م) [4] الذي أفرد له ترجمة مفصلة في مؤلفه "**مطلب الفوز والفلاح في آداب الطريق أهل الفضل والصلاح**" وقد اعتمد في ذلك على الترجمة التي أرسلها إليه محمد الصغير[5] بعدما طلب منه ذلك.

بالرغم من ذلك نجد العديد ممن اهتم بالترجمة لابن مريم، في هذا السياق نجد الحفناوي (ت1361هـ)الذي قال عنه: "الفقيه الصالح المؤرخ المؤلف محمد بن أحمد الملقب

---

[1] – ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والثقافي للغرب الإسلامي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1999، ص299.

[2] – نُجارا: النُجار هو الأصل والنسب، مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق، الدولية، القاهرة، 2008، ص903.

[3] – ابن مريم التلمساني، **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2014، ص63.

[4] – عادل نويهض، **معجم اعلام الجزائر**، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر والترجمة، لبنان، 1980، ص292.

[5] – محمد بن العباس الصغير: حفيد الشيخ ابن العباس الكبير العبادي التلمساني، أخذ عن الولي سيدي علي بن يحي السلكسيني متفنن في العلوم مشارك في جميعها توفي يوم الجمعة سنة1011هـ.انظر: ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص450_451.

بابن مريم الشريف المليتي المديوني صاحب كتاب البستان في علماء وصلحاء تلمسان الذي انتقاه من نيل الابتهاج للتمبكتي " كما أضاف صفحات متعلقة بذكر ما ورد في كتاب البستان من أسماء العلماء والأولياء المترجم لهم، أما البطوئي في الباب السابع من كتابه "المشيخة" في الفصل السابع منه فقد وصف ابن مريم بالشيخ والوسيلة، السيد الإمام الحسن، النظام، العالم العلم، القدوة العلامة، المدرسة المتفنن المنصف شيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد المكنى بابن مريم الشريف.[1]

أما والده فهو محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتي(ت985هـ_1567م) وقد أفرد له ابنه ابن مريم في كتابه البستان ترجمة فيها سيرته وكراماته، ذاكرا أهم المواقف التي حدثت له مع والده، وحسب ما أشار إليه في الكتاب ذاته فإن عائلته كانت على علاقة جيدة مع بعضها فنجده أشار إلى مجالسهم وتجمع أفراد أسرته التي تتكون من والده ووالدته وإخوته وزوجاتهم وكذا الأولاد، وتشير كلمة رحمه الله عند ذكره لإخوته أنهم توفوا قبله، وذكر من إخوته عائشة وأخويه إبراهيم وأحمد، كما أشار التلمساني أن والده احترف التعليم ودرّس الكثير من أبناء تلمسان في إحدى كتاتيبها[2]، وكانت بينهما علاقة مودة ورحمة.

من خلال ما سبق نعرف أن ابن مريم من أسرة أشراف، تلمساني الأصل والمنشأ فكيف كانت الأوضاع في تلمسان في حياة ابن مريم؟

2_ عصره:

عاصر ابن مريم نهاية الدولة الزيانية، فقد شهدت هذه الفترة اضطرابات سياسية وتدخلات خارجية إضافة إلى أوضاع اقتصادية واجتماعية سيئة ميزتها الآفات وانتشار المجاعة بسبب الحروب، هذا ما كان له دور في انتشار الجهل والخرافات والميول إلى التصوف، إلا أن هذا

[1] –عبد القادر بوباية، **عرض وتقديم كتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم المديوني**، د س، جامعة وهران، ص207.

[2] – ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص267.

لا يعني غياب التعليم والعلوم عن تلمسان الزيانية التي كان لابن مريم التلمساني حظ وافر منها.

2-1 سياسيا:

عاش ابن مريم في المرحلة التي توافق بداية انهيار الدولة الزيانية[1]، حيث كانت الحياة السياسية فيها مضطربة داخليا وخارجيا، من النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم، إلى ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب العاصمة تلمسان، كما شهدت تدخلات أجنبية، الإسبانية والتركية محاولة منهم للإطاحة بها من كل جانب تمهيدا لاحتوائها[2].

بالنسبة للإسبان، فبعد قضائهم على الحكم الإسلامي بالأندلس وسقوط آخر معقل للمسلمين وانهيار مملكة بني الأحمر[3] سنة 1492 م توجهت أنظارهم إلى سواحل شمال

---

[1] _الدولة الزيانية: يعود نسب ملوك بني زيان إلى جدهم عبد الواد اوعابد الوادي، وهم فرع من فروع قبيلة زناتة، تأسست بعد أن استلم يغمراسن بن زيان مقاليد الحكم سنة 633هـ، الذي استطاع أن يؤسس دولة قوية منفصلة عن الحكم الموحدي، مرت في تاريخها بأربعة مراحل، المرحلة الأولى مرحلة التأسيس والنشأة(633_709هـ/1235_1306م) المرحلة الثانية مرحلة القوة والتوسع(706_737هـ/1307_1338م)المرحلة الثالثة مرحلة النهضة(749_791هـ/1348_1389م)المرحلة الرابعة مرحلة الضعف والسقوط(791_962هـ/1390_1554م) وهو عهد ابي العباس العاقل قبل أن تصبح إيالة عثمانية. ينظر: محمد ابن حزم الظاهري الاندلسي، **جمهرة انساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، د ط، دار المعارف، مصر، 1962، ص495؛ أحمد بن عبد الله القلقشندي، **مأثر الانافة في علوم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ج2، د ط، مطبعة حكومة الكويت، 1985، ص100؛ حمزة عبد الصمد، **اهل الذمة في الدولة الزيانية**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2017، ص11.

[2] _ يحي بوعزيز **المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية**، د ط، "مجلة الاصالة"، العدد 26، الجزائر، 1975، ص24.

[3] _ بني الأحمر: ينتسب ملوك بني الأحمر أو بني نصر لمؤسس دولتهم محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن حسين بن نصر بن قيس الانصاري، بعد سقوط دولة الموحدين في معركة حصن العقاب سنة 1212، حيث بسط محمد بن يوسف نفوذه على عدة مناطق من الأندلس وجعل غرناطة عاصمة له، سقطت مملكة غرناطة عام 897هـ/1492م آخر معاقل المسلمين بالأندلس: ينظر: ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ص92.

إفريقيا، وشنوا غارات عديدة، حيث احتلوا المرسى الكبير[1] سنة 1505م ووهران[2] سنة 1509م، وأخضعوا تنس[3] ومستغانم[4] واحتلوا فيما بعد هنين[5] فخنقوا مملكة بني زيان وهددوا ملكها.

توالت سلسلة من الاضطرابات والفتن على بني زيان حتى لجأوا إلى سياسة الخضوع والمسالمة، وهنا استغل الإسبان الفرصة للتوغل داخل البلاد[6]، و في نفس الوقت ظهرت قوة الأتراك كطرف رابع في الصراع إلى جانب بني حفص[7]، إلى جانب التنافس من الغرب، من بني مرين[8] والسعديين[9] والإسبان، ثم إلحاق تلمسان بإيالة الجزائر العاصمة العثمانية

[1] _المرسى الكبير: بناها الرومان على هيئة قلعة محصنة على ساحل البحر المتوسط على فرسخ من وهران، كانت ترسو به كل عام السفن القادمة من أوروبا: مارمول كربخال، **إفريقيا**، تر محمد حجي، محمد زينبر وآخرون، ج2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، المغرب، 1984، ص327.

[2] _وهران: مدينة قديمة، تفصلها مسافة فرسخ واحد عن المرسى الكبير، نصفها من السهل ونصفها على جبل وعر، وهي معدودة على الدوام من مملكة تلمسان، **نفسه**، ص329.

[3] _تنس: مدينة عليها سور ولها أبواب عدة، بعضها في سهل وهي من البحر على نحو ميلين على واد كثير الماء وشربهم منه، وهي اكبر المدن التي يتعدى اليها الاندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم: ابن حوقل، **صورة الأرض**، د ط، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1996، ص80.

[4] _مستغانم: مدينة موغلة في القدم، بناها سكان البلاد الاصليون على سفح جبل مطل على ساحل البحر، توجد مستغانم على أربعة عشرة فرسخا شرق وهران، بيوت هذه المدينة جيدة البناء لا يكاد بيت منها يخلومن ينبوع ماء: مارمول كربخال، **المصدر السابق**، ص 350.

[5] _هنين: مدينة بالمغرب جليلة على البحر، وشمالها تلمسان، وهي بقرب ندرومة، محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق احسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، لبنان، 1984، ص597.

[6] _مولاي بلحميسي، **نهاية دولة بني زيان**، مجلة الاصالة، العدد 26، الجزائر، 1957، ص32.

[7] _بني حفص: نسبة إلى أبو زكريا يحي الحفصي بن ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص الهنتاتي نسبة إلى هنتاتة إحدى فروع قبيلة المصامدة البربرية التي كانت تقيم بالمغرب الأقصى، تمكن من فرض سيطرته في فترة الحكم الموحدي سنة 634هـ/1237م، ينظر: أحمد بن عامر، **الدولة الحفصية**، د ط، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974، ص.17

[8] _بني مرين: فخذ من قبيلة زناتة البربرية، يرجع نسبهم إلى مرين بن ورتاجن بن مادغيس الابتر بن بر، وهم أبناء عمومة مع بني عبد الواد، اسسوا دولتهم في المغرب الأقصى عام 1244 وسقطت على يد الوطاسيين عام 1465، ينظر: هوارية بكاي، **العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 200، ص7.

[9] _السعديين: اختلفت الروايات في نسب السعديين، قيل انهم من بني سعد بن بكر بن هوزان الذين تنتمي اليهم حليمة السعدية رضي الله عنها حسب رواية المقري، وقيل انهم لقبوا بالسعديين لانهم قد سعدوا بدولتهم حسب روايات اليفرني، و=

الجديدة سنة962هـ_1554م, وبقدوم الأتراك إلى تلمسان وبث حكمهم فيها ظهرت ثورات وتمردات عديدة ضد الحكم التركي، منها القتال الذي جرى بين العرب والترك ولم يحدد تاريخه، لكن ابن مريم ذكره في ترجمة الشيخ السويدي (ت980هـ_1572م).[1]

2-2 ثقافيا:

دخل المغرب الأوسط بتأسيس الدولة الزيانية عهدا حافلا بالازدهار الثقافي والتقدم في مختلف العلوم، وبالرغم مما عانته في نهاية عهدها من تراجع في المجالات الأخرى إلا أن المجال العلمي ظل مزدهرا فيها، فكان جل العلماء والأدباء من أبنائها الناشئين فيها أو الوافدين إليها، وهذا لسببين رئيسيين أولهما تشجيع الملوك الأوائل للعلماء والأدباء، والثاني نزوح عدد كبير من أهل العلم والأدب والفن إلى تلمسان.[2]

من أمثلة هؤلاء العلماء نذكر أبوزيد عبد الرحمن بن الإمام (ت743هـ/1343م) الذي برز في الفقه، ومحمد بن العباس التلمساني(ت871هـ/1467م) الذي عرف في العلوم العربية، أما يحي ابن خلدون(ت769هـ/1379م) كاتب سر أبو حمو موسى الثاني(ت791هـ/1388م) فكان شاعرا ومؤرخا، والشيخ القاضي سعيد بن محمد العقباني(ت980هـ/1571م) برز في الرياضيات، أما في مجال علم الفلك نجد القلصادي(ت891هـ/1487م) الذي صنف في التنجيم شرحا على رجز أبي إسحاق بن الفتوح.

= قيل انهم من ولد النفس الزكية وهم بهذا أبناء عمومة مع العلويين، أسسوا دولتهم في المغرب الأقصى دام حكمها من 916هـ_1069هـ/1510م_1658م) ينظر: إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، المجلد الثاني، د ط، دار الرشاد الحديثة، المغرب، د ت، ص 272.

[1] _ هو محمد الأدغم السويدي (ت980هـ/1572م)، الولي الصالح العارف بالله كان فقيها صوفيا ذو كرامات ومناقب: ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص ص 482_483.

[2] _ابن صعد التلمساني، **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، تح محمد أحمد الدياجي، ط1 دار صادر، لبنان، 2011، ص11.

كما عرفت هذه الفترة انتشارا سريعا لتيار التصوف والمتصوفة، لعل من أسباب انعزال العلماء والتجائهم إلى الزهد والتصوف هو ضغط السلاطين عليهم وجهرهم بالظلم والطغيان والسكوت عن المنكر والفساد، بالإضافة إلى أن المدينة كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء الصالحين.[1]

لم يكن ابن مريم بمنأى عن الأحداث في تلمسان، فقد تأثر بها كما نهل من علومها وتتلمذ على يد شيوخها، فما هو نصيب ابن مريم من العلوم المزدهرة آنذاك في تلمسان؟

3_ طلبه للعلم وشيوخه:

3_1 طلبه للعلم:

تلقى ابن مريم تعليمه الأولي بمدارس تلمسان، كما درس بالجامع الأعظم[2] بتلمسان، فصار مشاركا في علوم عدة أهمها الفقه والتاريخ، ففي الترجمة المفصلة لتلميذه الفقيه العالم عيسى بن محمد بن يحي الراسي البطوئي السعيدي(ت1040هـ_1630م) في كتابه مطلب الفوز والفلاح في أداب طريق أهل الفضل والصلاح نقلا عن عبد القادر بوباية:" **قد منَّ الله تعالى عليَّ بملاقاة الشيخ الإمام الصوفي الهمام، درّة أقرانه وسنوسي زمانه أبي عبد الله المذكور، فمتعت النفس والعين من مشاهدته ومن جميل لقائه، وتزودت منه ما ينفعني الله به دنيا واخرة من جليل علومه وأحواله وصالح دعائه، فما رأت عيناي قط مثله خلقا وخلقا وانصافا وحرصا على العلم، ورغبة في نشره، واجتهادا في طلبه وإدمانا على تلاوة الكتاب العزيز ...وتبحرا في سائر العلوم الشرعية ...**" [3]

---

[1] _ أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ص 119.

[2] _الجامع الأعظم: أمر ببنائه الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين سنة 530هـ/1136م، وشيد منارته فيما بعد الأمير يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية.

[3] _ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص7.

3_2 شيوخه:

تتلمذ ابن مريم على يد مجموعة من شيوخ تلمسان في علوم اللغة والفقه والتصوف ابرزهم:

- والده محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتي(ت985هـ).
- الشيخ أحمد بن عيسى الورنيدي(ت قبل 1014هـ_1605م).
- الشيخ أبو السادات محمد بن يحي المديوني المدعو أبا السادات(ت بعد 590).
- الشيخ محمد بن محمد بن موسى الوجديجي المدعو بالصغير(ت981هـ_1573م).
- الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المطغري (ت1001هـ_1592م).

4 _منهجه في التدريس وتلامذته:

4_1منهجه في التدريس:

بدأ ابن مريم ممارسة التعليم بعد مرض والده حيث خلفه على التدريس في المسجد، حيث يقول في ترجمة والده: "**يا ولدي اذهب اقرئ الأولاد في المكتب فذهبته ولم أعصه وأقرأت الأولاد خمسة أيام...**"[1] ثم ذكر العلوم التي درّسها، وهي كل ما تعلق بفرائض الصلاة والوضوء والغسل والحج وسننهم، وبعد ذلك أراد أن يواصل التدريس حيث قال:"**وقلت في نفسي لوكان أبي يتركني أعلم الصبيان**"[2] وفعلا تحققت أمنيته وسمح له والده بالتدريس.

يضيف تلميذه البطوئي نقلا عن بوباية عن منهج ابن مريم التلمساني في التدريس فوصفه بقوله: "**وكان رضي الله عنه يقرئ الصبيان في مكتب والده بباب علي[3] أزيد من أربعين عاما، وكان لا يقهر أحدا من الصبيان بالضرب ولا بالحبس، وهو مشغول بالنظر في**

---

[1] _ابن مريم التلمساني،**نفسه**، ص11

[2] _نفسه، ص 11.

[3] _باب علي: هو نفسه باب سيدي الحلوي، يقع في شمال مدينة تلمسان، اتخذ أسماء عديدة منها باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي، ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تحقيق محمود أبوعياد، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 117.

الكتب أو النسخ والصبيان على عادتهم، فإذا دعاهم لعرض ألواحهم حفظوا كلهم ببركته حتى انتفع على يده خلق كثير، وكان لا يشد على أولياء الصبيان في الأجر بل من اتى بشيء قبله، ومن لم يأت بشيء لم يسأله عن ذلك."[1]

2_4 تلامذته:

درّس ابن مريم الكثير من أبناء تلمسان كما درّس أيضا العديد من الطلبة الوافدين إلى تلمسان من أجل أخذ العلم عنه، وهذا ما يؤكد مكانته العلمية العالية واستمراره في مهنة التدريس لمدة طويلة، ففي قراءة القران أبرز تلامذته الفقيه أبو السادات وابن مريم محمد الصغير والفقيه سعيد بن أحمد المقري.

من الملاحظ أن أغلب تلامذة ابن مريم من الفقهاء، إذ كان هو الآخر متخصصا في الفقه، كما منح عدة إجازات بعد أن ينهي تعليمه لأحد تلامذته وهوما ذكره عيسى البطوئي في كتابه مطلب الفوز والفلاح عن إجازته التي خصه بها ابن مريم التلمساني.

5_ مؤلفاته:

كتب ابن مريم في العديد من مجالات المعرفة، في الفقه والتصوف والتاريخ، كما نلاحظ في ديباجة شروحه أنه ما سلك مسلك المؤلفين في الفقه إلا لأسباب معينة منها:

- أن الله أوجب على العلماء البيان.
- رجاء الثواب من الله وترك عمل صالح ينتفع به بعد الموت.
- أن كثيرا من طلبة الوقت يحفظون المسائل بلا فهم ولا معرفة.
- أن بعض أصحابه من الطلبة سألوه أن يضع لهم هذه التأليف.[2]

[1] _ ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص13

[2] _سمير يحي سمراد، **التاليف الفقهي عند ابن مريم التلمساني دواعيه وسماته**، " المجلة الجزائرية للمخطوطات"، العدد1، الجزائر، 2021، ص184_185.

اهتم ابن مريم بالتأليف في مجالات أخرى أيضا في التصوف والتراجم والمناقب، لعل أشهرها البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، لكنه اشتهر بمؤلفات أخرى وقد ذكرها في خاتمة البستان تلبية لطلب ابنه وذكر له جملة ما ألفه، وهذه المؤلفات هي:

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان
- غنيمة المريد لشرح مسائل أبي الوليد
- تحفة الأبرار وشعار الأخيار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار
- فتح الجليل في أدوية العليل لعبد الرحمن السنوسي المعروف بالقلعي
- فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام، لإبراهيم التازي
- كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد
- التعليقة ألسنية على الأرجوزة القرطبية
- شرح على مختصر الصغرى
- حديث نبوي وحكايات الصالحين
- تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسير بعض الفاظها
- شرح المرادية للتازي[1]

من الملاحظ أن ابن مريم أكثر من الشروح والتقييد في التصوف، رغم اشتغاله بالتدريس، وهذا ما لم يستطع فعله العديد من معلمي تلمسان الجمع بين التعليم والتأليف والميل إلى التصوف مع انتشار المظاهر الزهدية في ذلك العصر[2].

6_وفاته:

توفي ابن مريم بمدشر الحنايا بتلمسان وعندما كان يصارع سكرات الموت قال لابنه محمد الصغير:" **لوكان هنا أحمد بن ونيس وعيسى البطوئي ما غسلني غيرهما**" وذلك تعبيرا لمحبته لهما وهما من تلامذته.

[1] _ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص 19.

[2] _أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ص113.

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاة محمد بن محمد بن أحمد التلمساني، فلم يذكر من ترجم لابن مريم تاريخا محددا لوفاته، وإنما حددوا ذلك أما بتاريخ تأليف كتابه البستان باعتباره آخر مؤلفاته أو من خلال ترجمة أحد الذين ذكرهم في البستان، أو من خلال إجازاته لتلامذته.

ذكر الحفناوي الذي ترجم هو الآخر لابن مريم، أنه كان حيا سنة 1014هـ وهو تاريخ تأليفه للبستان، ووافقه في ذلك مخلوف صاحب كتاب شجرة النور الزكية، أما بعضهم الآخر فقد ذكر تاريخا محددا لوفاته، ومنهم الحاج محمد بن رمضان شاوش الذي حدده بسنة 1020هـ_1612م، في حين عادل نويهض قال بأنه كان على قيد الحياة سنة1025هـ_1611م[1]، أما بروفنسال فذهب إلى القول بأن وفاته كانت سنوات قليلة بعد سنة 1011هـ_1602م تاريخ تأليف البستان.[2]

غير أن الرأي الراجح لتحديد تاريخ وفاة ابن مريم، هو ما توصل إليه الباحث حسن الفكيكي باقتراح تحديد تاريخ وفاة مؤلف البستان في الفترة الممتدة بين سنتي 1025هـ_1028هـ من خلال البحث عن الإجازة التي منحها ابن مريم لتلميذه عيسى البطوئي قبل وفاته، وهو حسب عبد القادر بوباية الاقتراح الأقرب إلى الحقيقة في انتظار اكتشاف مؤلفات أخرى تميط اللثام نهائيا عن تاريخ وفاة ابن مريم.[3]

المطلب الثاني:

التعريف بكتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان

كتابُ البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان من أبرز مؤلفات ابن مريم، ونظرا لأهميته فقد نشره محمد بن أبي شنب سنة 1908م بطلب من السلطات الفرنسية ونفدت

[1] _ عادل نويهض، **المرجع السابق**، ص 292.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص16.

[3] _ نقلا عن بوباية عبد القادر، **مطلب الفوز والفلاح**، تحقيق الفكيكي، ص 49_50.

نُسَخه سريعا، ثم أعاد نشره طالب عبد الرحمن سنة 1986م بنسخة استعرض فيها ترجمة موجزة للمؤلف والناشر الأول للكتاب، ودراسة لموضوع الكرامة، كما قام المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال بترجمته إلى اللغة الفرنسية ونشره سنة 1910م، وقام بتحقيق الأعلام البشرية والجغرافية، وجاءت التعاليق مليئة بالمعلومات القيمة[1]، كما قام عبد القادر بوباية بإعادة تحقيق الكتاب اعتمادا على النسخ السابقة وأخرج كتابه سنة 2014 محققا ومقارنا بالنسخ السابقة من البستان، وهو آخر إصدار محقق متعلق بكتاب البستان، و هي النسخة التي اعتمدنا عليها.

1_عنوان الكتاب وتاريخ تأليفه:

من الملاحظ أن العديد من الأمور المتعلقة بابن مريم تبقى محل اختلاف بين من يهتمون بسيرته، ومن هذه الأمور عنوان كتاب البستان وحتى تاريخ تأليفه.

1_1 عنوان الكتاب:

تضاربت آراء المؤرخين حول عنوان الكتاب الصحيح الذي ورد في النسخة التي كتبها ابن مريم، حيث ذكر ابن أبي شنب العنوان في مقدمة تأليفه، فقال: "**فلما كان الكتاب المسمى البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان.**"[2]

أما مخلوف في كتابه شجرة النور الزكية فقد ذكر عنوانا آخر للكتاب وهو البستان في علماء تلمسان[3],

[1] _عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص223.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء ة العلماء بتلمسان**، مراجعة محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1907، ص4.

[3] _مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، تعليق عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2002، ص 432.

غير أن الزركلي ذكر العنوان كما هومن عند ابن مريم وهو العنوان الأصح الذي اعتمده ابن أبي شنب في تحقيقه للكتاب وهو البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أما في نسخة بوباية فقد جاء العنوان البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان .

2_ تاريخ تأليف الكتاب:

اتفق من ترجم لابن مريم على تاريخ كتابته وحددوه بسنة 1014هـ_1605م، وهو ما ذكره أبي القاسم الحفناوي وصاحب شجرة النور محمد مخلوف وعبد القادر بوباية الذي استند في ذلك على ترجمة محمد السلكسيني الذي توفي سنة 1014هـ، وهذا دليل أن تاريخ الانتهاء منه هو نفسه تاريخ وفاة السلكسيني[1].

غير أن ابن مريم ذكر تاريخ الانتهاء من تدوين الكتاب صراحة في خاتمة كتابه بقوله: "**وها هنا انتهى الغرض فيما قصدناه، على الوجه الذي بيناه، ولا حول ولا قوة الا بالله، وفي سنة إحدى عشر وألف بمدينة تلمسان وضعناه، ونسأله حلت قدرته أن يجعله خالصا لوجهه على الوجه الذي يتقبله ويرضاه**"[2]، ومنه فإن تاريخ تأليف الكتاب محصور بين سنة 1011_1602 و1014_1605.

يتضح لنا من خلال القول السابق لابن مريم المقاصد التي أرادها من تأليفه لكتاب وهي ابتغاء مرضاة الله تعالى غير أن له دوافع أخرى لتأليفه هذا الكتاب، وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي.

2_دوافع تأليف الكتاب:

كما سبق الذكر فإنّ ابن مريم قام بتأليف كتاب البستان لدافع ديني بالدرجة الأولى، لكن هذا لا يمنع من وجود غايات أخرى ابتغاها من هذا الكتاب أو كتبه لأجلها، وهذه الدوافع هي:

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص 20.

[2] _ نفسه، ص518.

2_1 دوافع دينية:

- سعيا لكسب الثواب ونيل الأجر في الآخرة .
- انتشر في العهد الذي عاش فيه ابن مريم تيار التصوف، وحب الأولياء والتبرك بهم، لذلك جاء البستان ساعيا منه إلى التبرك بالعلماء والأولياء بالترجمة لهم وذكر مناقبهم[1].

2_2 دوافع علمية:

- إفادة طلبة العلم بذكر جملة وافرة من الكتب والتعريف بها وبمؤلفيها وما تحويه من علوم.
- تلبية لطلب بعض الطلبة والعلماء الذين عاصرهم، وكانوا يريدون تراجم لأعلام مدينة تلمسان ساهموا في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية فيها في مختلف العلوم خاصة الدينية منها[2].

2_3 دوافع شخصية:

لعل السبب الرئيسي وراء اخراج ابن مريم للبستان هو ذلك الطلب الذي لم يعرف صاحبه الذي أخبره بضرورة التأليف للتعريف بأعلام تلمسان وصلحائها[3]، وقد ذكر صاحب البستان هذا الطلب في مقدمته فقال:"...**أما بعد السلام عليكم أيها الأخ الأحب...فقد طالعت ما أشرت به عليّ من ذلك التأليف الأبرك ...فأسعفتكم في ما طلبتم نسأله سبحانه أن يكمله لكم وأن يسعفكم به خصوصا ...**"[4]

---

[1] _زوبيدة خليفي، **حركة التأليف التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2005، ص 60.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 21.

[3] _ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، ط2، دار البصائر، الجزائر، د س، ص 300.

[4] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 20.

أن هذا الطلب لم يكن لمتطلبات شخصية بحتة، وانما جاء نتيجة للأوضاع الثقافية السائدة آنذاك في المغرب الأوسط، حيث لم تكن هنالك كتابات تهتم بالترجمة للأعلام وبسيرتهم، فالبستان جاء استجابة لدعوة ملئ الفراغ المتعلق بالكتابة في سير العلماء.

ولأن صاحب الطلب كما يظهر جليا ذو مكانة عالية عند ابن مريم فلبى طلبه ببستانه الذي استفاض في ذكر مناقب هؤلاء الاعلام.

3_مصادر الكتاب:

في خاتمة كتاب البستان ذكر ابن مريم اهم المصادر التي اعتمد عليها في كتابه وهي:

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي ابن خلدون
- النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب لابن صعد التلمساني
- روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين لابن صعد التلمساني
- الكواكب الوقادة فيمن كان بسبتة من العلماء والصالحين القادة

كما وظف ابن مريم مجموعة أخرى من المصادر لم يذكرها في خاتمته أهمها:

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي
- أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لعبد الرحمن ابن خلدون[1]

[1] _ بوباية عبد القادر، **المرجع السابق**، ص 245.

إضافة إلى المصادر الكتابية السالفة الذكر، اعتمد ابن مريم على مصادر شفوية لجمع المادة العلمية، وهي معلومات انتقاها إما سماعا أو مشاهدة.

5_ موضوعه ومنهجه:

من خلال إطلاعنا على الكتاب وقراءته عدة مرات تبين لنا أن محتوى الكتاب كما يلي:

- ترجم ابن مريم لمائة واثنين وثمانين عالما وولي ولدوا بتلمسان أو وفدوا اليها، لكنه ذكر علماء وأولياء ليست لهم علاقة بتلمسان فلم يولدوا بها ولم يزوروها، وهؤلاء الأعلام هم:

* أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق(ت899هـ/1493م)
* خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي المصري(ت799هـ/1374م)
* داود بن سليمان بن حسن البنبي المصري(ت863هـ/1459م)
* زين بن أحمد بن يونس الجيزي المصري(ت977/1569م)
* شعيب بن محمد بن جعفر بن شعيب أبو مدين التونسي(ت770هـ/1369م)
* صالح بن محمد بن موسى بن محمد بن محي الدين الحسني الزواوي(ت839هـ/1435م)
* أبو القاسم بن أحمد بن المعتل البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي التونسي(ت844هـ/1440م)
* قاسم بن عيسى ابن ناجي أبو الفضل وأبو القاسم التونسي(ت837هـ/1433م)
* كريم الدين البرموني المصراتي وليس المصري وهو نسبة لمصراته في ليبيا(ت998هـ/1590م)
* محمد بن محمد بن عرفة الورغمي من القصبات التونسي(ت803هـ/1401م)
* يوسف بن عمر الأنفاسي(ت761هـ/1359)

* يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي(ت513هـ/1119م)

وهو بهذا خالف شرط ورود اسم أي علم على أن يكون منتمي لتلمسان إما مولدا ووفودا بالرغم من وجود أعلام تلمسانيين أهملهم كتاب البستان ولا يعلم سبب عدم ذكرهم[1].

_أكثر ابن مريم من النقل عن المصادر الانفة الذكر دون التفريق بين ما كتبه والمعلومات المقتبسة من هذه المصادر.

_ جاءت تراجم العلماء والأولياء مرتبة ترتيبا هجائيا، حيث بدأ باسم أحمد وانتهى عند اسم يحي .

_ بعض التراجم كانت مختصرة جدا اكتفى فيها ابن مريم بذكر اسم صاحب الترجمة وصفاته، مثل ترجمة إبراهيم الوجديجي التلمساني، بينما تراجم أخرى كانت مطولة ذكر فيها الكاتب كل ما يتعلق بحياة العلَم وتجاوزت بعضها 20 صفحة مثل ترجمة حسن بن مخلوف الراشدي المعروف بأبركان[2].

_احتوت التراجم في أغلب الأحيان على نسب المترجم له وأصله وتاريخ ولادته ووفاته وتعليمه وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته ومناقبه ورحلاته التي قام بها، وهذا ما يعطينا لمحة عامة عن حياته[3].

_ استعمل ابن مريم في الكثير من المرات اللغة العامية مثل عبارة" **اش يعملي**" التي وردت في ترجمة محمد الأدغم السويدي وعبارة "**يرحم لالة مريم ترضى عني**" التي وردت في ترجمة والده.

_ استخدام مصطلحات متعلقة بالصوفية، وهذا لأنه من كتب المناقب التي تهتم بذكر كرامات الأولياء ومن هذه العبارات: أصحاب طي الأرض، الإبدال، القطب، الغوث، لأن

[1] _ عبد القادر بوباية، **المرجع السابق**، ص 226

[2] _ نفسه، ص 227.

[3] _ نفسه، ص 226.

لابن مريم نزعة صوفية سعى من خلالها إلى أن يرسم صورة ملائكية للمترجم لهم لا تشوبهم الأخطاء ولا الزلل.

5_أهمية الكتاب:

يعد كتاب البستان لابن مريم التلمساني من أهم كتب المناقب التي تؤرخ لتلك الفترة من تاريخ المغرب الأوسط، وهي نهاية العهد الزياني وبداية العهد العثماني وما عاصرها من تغيرات على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي[1].

يرصد هذا الكتاب تحركات العلماء ورحلاتهم وتردهم على حواضر العلم والثقافة وترددهم على حاضرة تلمسان وتبيان مكانتها العلمية ضمن حواضر المغرب الأوسط.

نستنبط من الكتاب أيضا المعلومات المتعلقة بالعمران والمنشآت التي كانت متواجدة بتلمسان وأحوازها، والتي كانت مسرحا للعديد من الأحداث إضافة إلى إخبار أخرى متعلقة بالحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد السائدة آنذاك، فهو من المصادر المهمة التي ابتعدت قليلا عن التأريخ للأحداث السياسية والعسكرية فقط[2].

أن الأهمية الكبرى لكتاب البستان هو معرفة تلك العلاقة التي كانت سائدة آنذاك بين المتصوفة والمجتمع، ومدى تغلغل تيار التصوف وغلبته في كل مجالات الحياة، السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

[1] _ عبد القادر بوباية، **المرجع السابق** ، ص228.

[2] _ آسيا ساحلي، **المرجع السابق**، ص 268.

المطلب الثالث:

الكتابة المناقبية وأهميّتها في الكتابة التاريخية

1_ تعريف الكتابة المناقبية:

1_1 لغة:

ـ جمع مناقب وهي الفعل الكريم والمفخرة.[1] فالمناقِب بالكسر تعني ذكر المكارم[2].

أي هي ما عرف به من الخصال الحميدة والأخلاق النبيلة.[3]

1_2 اصطلاحا:

تدل المناقب على مفاخر الأعمال والخلق الحسن، وقد استعمل علماء الحديث هذه اللفظة كثيرا، ونلاحظ أنها اقترنت أكثر ما اقترنت بالكرامة فأصبحت كتب المناقب تحوي كثيرا منها.[4]

كما تعرف كذلك بأنها تلك الكتابات النثرية التي حكت كرم الفعل لدى شريحة الزهاد والصوفية والصلحاء والأولياء والمرابطين على هيئة سِيَر ضبطت حياتهم اليومية، وسلاسل أنسابهم وممارساتهم الدينية الاجتماعية، وصوّرت الشخصية الدينية داخل النص كشريحة

---

[1] _نضار سيد أحمد، مصطفى محمد وآخرون، **المعجم الوسيط**، د ط، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، د ت، ص550.

[2] _ابن منظور، **لسان العرب**، ج5، ط1، دار صادر، د ت، ص49,

[3] _جبران مسعود، **معجم الرائد**، المجلد الثاني، دار العلم للملايين، ط4، لبنان، 1971، ص1445.

[4] _أبي عبد الله الملالي التلمساني، **المواهب القدسية في المناقب السنوسية**، تح علال بوربيق، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص

كارزماتية تنتصر على مختلف القوة التي تمثل الخوف والشر، وهي في الغالب تتكون من اللصوص والأعراب والقراصنة والسلطة والطبيعة.[1]

تدور الموضوعات الواردة دوما في النص المناقبي حول الحياة الدنيا والاخرة، فموضوعات الدنيا تتحدث عن الخوف والتعصب، بالإضافة إلى تراجم الفقهاء والعلماء وسفرياتهم وإطعام الطعام، وإشفاء المرضى، بالإضافة إلى الكرامات وموضوعاتها كالطيران في الهواء والتحكم في الكائنات، إحضار الثمار في غير موسمها ومعاقبة اللصوص والسلطة، في حين ركزت موضوعات الآخرة على ما هو روحي مثل ملاقاة الخضر والاطلاع على الغيب وكرامات ما بعد الموت.[2]

2_نشاة الكتابة المناقبية في بلاد المغرب:

ظهرت الكتابة المناقبية في بادئ أمرها في بلاد المشرق، ثم انتقلت إلى بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي .

لعل أول إرهاصات ظهور التأليف في أدب المناقب كان من أجل اكتساب الشرعية السلطوية، ويظهر ذلك جليا في مؤلفات الأدارسة (172هـ_788م) التي تعرضت لمناقب آل البيت ونسب الأدارسة وتأسيس دولتهم، وإثبات نسبهم الشريف، ومن أمثلة هذه المؤلفات "**السفرة**" لأبي طالب بن أحمد بن عيسى، وكتاب "**الادارسة**" للفقيه محمد بن عبد الملك بن ودون[3].

---

[1] _ الطاهر بونابي، **أهمية المخطوطات المناقبية في كتابة التاريخ الاجتماعي والثقافي والفكري للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط**، "المجلة الجزائرية للمخطوطات"، دت، ص 89.

[2] _ محمد مفتاح، **التيار الصوفي والمجتمع في الاندلس والمغرب اثناء القرن 8هـ/14م**، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، المغرب، 1998، ص ص 210، 211,

[3] _ أحمد التوفيق، **تاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى**، الملتقى الدراسي، الرباط، ، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة عكاظ، 1989، ص 80.

جاء الإباضيون بعد ذلك (القرن 3هـ_9م) وسلكوا نفس مسلك الأدارسة في تدوين تاريخهم، فقد حرص الفقهاء منهم على تدوين سير رجالهم، وتميزت أغلبها بالتمجيد والمسحة الأسطورية، أهم هذه المؤلفات كتابات المؤرخ الإباضي ابن السلام اللواتي و"**مسائل نفوسة**" للإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم.

في نفس الفترة (القرن 3هـ_9م) ظهر كذلك الفقهاء المالكيون، لكن مضمارهم في الكتابة كان مختلفا قليلا، فهم قد ألفوا في الحصون والأربطة ومناقب أهل الربط، وينبع ميولهم نحو هذا النوع من الكتابة من ضرورة الجهاد والدعوة اليه، ونذكر مثالا عنها كتاب "**الأحمية وما يجب على أهل الحصون أن يعلموا به**" لأبي الفضل بن يوسف بن مسرور[1].

بظهور الشيعة الإسماعيلية (القرن 4هـ_10م) احتدم الصراع بينها وبين المالكية، فصار مؤرخي كل مذهب يسعى للكتابة في مناقب رجالهم وقادتهم وفقهائهم، من أمثلة كتابات المالكية "**رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادهم ونسائهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**" للمالكي أبوعبد الله محمد، وقد تميزت هذه الكتابات أي المالكية منها بتأثرها بمنهج الحديث والفقه وكانت نصوصهم مغلفة بالسرد القصصي المليء بالمآثر والمناقب مع نبذ كل ما لا يلائم الشريعة.

وبظهور تيار التصوف في بلاد المغرب، بلغت الرواية الشفوية ذروتها خاصة في القرن 6هـ_12م، وصارت هي مصدرا لموضوعات كتب التراجم والطبقات، فكثير منها نجد في ثناياها روايات مصدرها نساء، كما أنها تميزت باستعمال اللغة البربرية[2]، عرف هذا النوع من الأدب المنتشر آنذاك المتعلق بمناقب الصوفية خاصة بمخطوطات المناقب، وكان الهدف الرئيسي حسب اعتقاد السالكين من الفقهاء هو إعادة إنتاج نموذج ولائي أسمى يكون

[1] _ طاهر بونابي، **المرجع السابق**، ص 91.

[2] _محمد مفتاح، **المرجع السابق**، ص، 224.

مثلا يحتذى به لدى المريدين الذين يكونون في أمس الحاجة إلى معرفة مناقب شيخهم وفضائله وسيرته وإنتاجه المعرفي.

استمر هذا النوع من الكتابة إلى أواخر القرن 9هـ_15م وظهرت العديد من الكتابات في هذه الفترة، من أهمها الكتاب محل دراستنا البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم التلمساني.

3_الفرق بين المناقب ومفاهيم أخرى:

المستقرئ للتأليف المنقبي يتساءل عن مدى الاختلاف بين المناقب والمفاهيم المجاورة لها، فهناك من يعتبرها خرافات أو كرامات أو أساطير أو خوارق وغيرها.

فبالنسبة للخرافات نلاحظ أنها تتقاطع مع المناقب في بعدها العجائبي ، وذلك بسبب أن المناقب تتحدث عن أحداث واقعية، وإن شابها بعض الغلو والمبالغات وكذا تتحدث عن شخصيات معروفة لها وجود حقيقي في التاريخ .[1]

أما الكرامات[2] فالفرق بينها وبين المناقب، أن هذه الأخيرة أشمل من الكرامات، و المنقبة تدل على كرم الفعل والخلق الحسن، وأنها لا تختص بفئة معينة من المجتمع، وإن كان الغالب ارتباطها بالعلماء والصالحين في حين تقتصر الكرامة على فئة الأولياء دون سواهم.[3]

نجد كذلك مصطلح الأسطورة[1]، التي نلاحظ أنها اشتركت مع المناقب في احتوائها على جملة من الحكايات الطريفة والمتوارثة الحافلة بضروب من الخوارق، لكنها تختلف معها

[1] _ أيوب بن حود، **أدب المناقب في كتاب سكردان السلطان لابن ابي حجلة التلمساني**، أطروحة ماجيستير، جامعة قاصدي مرباح، بسكرة، الجزائر، 2009، ص05.

[2] _ الكرامة: أمر خارق للعادة يأتي به شخص ويقال أنه صاحب كرامة: نصار سيد أحمد واخرون، **المرجع السابق**، ص449.

[3] _ أيوب بن حود، **المرجع السابق**، ص 05.

اختلافا بينيا في ارتباطها بالخيال، إضافة إلى أن الأساطير رديف لكل ما هو باطل وغير حقيقي، وليس الأمر كذلك مع المناقب.[2]

ترتبط المناقب كذلك بمصطلح التاريخ[3]، رغم أن التاريخ يختلف عن المناقب من ثلاثة أوجه، أول هذه الأوجه أن التاريخ علم، والمناقب لا ترقى إلى درجة العلم، ثانيها أن هدف التاريخ تقديم صورة شاملة عن الحياة في ظروف زمنية محددة وإطار جغرافي معين، بينما يقتصر دور المناقب على إبراز جزء مضيء عن حياة علَم من الأعلام، أما ثالثا فإن التاريخ يحرص على ربط كل حدث بزمنه المحدد بدقة، وهذه ليست من أولويات المناقب، وعليه لا يمكن أن نعتبر المناقب تاريخا، لكن يمكن اعتبارها جزءا من التاريخ.[4]

أما التصوف، فنجد أن دائرة الصلاح التي ينتمي إليها الصوفي هي نفسها التي تنتمي إليها المناقب، وهنا نلمس أن التصوف يعد أقرب الحقول المعرفية للمناقب، لأن البيئة الصوفية مثلت أرضية صالحة لنشأة هذا الصنف من الأشكال التعبيرية، لذا شاع ارتباط المناقب بالمتصوفة الزهاد والصالحين.

4_أنواع المؤلفات المناقبية:

يمكن تقسيم التآليف المناقبية إلى صنفين كمي ونوعي.

4_1 التصنيف الكمي: وهو بحسب عدد الذين ترجم لهم وينقسم هو بدوره إلى قسمين:

---

[1] _الأسطورة: مجموعة الحكايات الطريفة المتوارثة منذ أقدم العصور الإنسانية الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات: أنس داود، **الأسطورة في الشعر العربي الحديث**، ط3، دار المعارف، مصر، 1992، ص19.

[2] _أيوب بن حود، **المرجع السابق**، ص 06.

[3] _ التاريخ: هو ذلك العلم الذي تعرف به أحوال الماضين من الأمم الخالية من حيث معيشتهم وسيرتهم ولغتهم ونظمهم واعتقاداتهم: عبد الرحمن الجيلاني، **تاريخ الجزائر العام**، ط4، دار الثقافة للنشر، لبنان، 1980، ص16.

[4] _ أيوب بن حود، **المرجع السابق**، ص 7.

4_1_1 مؤلفات جمعت مناقب فرد واحد: سواء كان وليا أو عالما أو سلطانا أو أميرا، مثل كتاب المعزى في مناقب أبي يعزى.

4_1_2 مؤلفات جمعت مناقب مجموعة افراد: أولياء أو علماء أو سلاطين... مثل كتاب الأشراف في مناقب الأشراف.

4_2التصنيف النوعي: بحسب موضوع أو مجال المترجم لهم وينقسم إلى قسمين:

4_2_1 مؤلفات ذات طابع ديني: اهتم أصحابها بتعداد مناقب الأولياء والعلماء والزهاد والعباد الصالحين، أفرادا كانوا أو جماعات مثل: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب وكتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم التلمساني.

4_2_1 مؤلفات ذات طابع سياسي: جمعت فيها مناقب الملوك والأمراء والسلاطين [1]

5_علاقة كتب المناقب بالتاريخ:

أصبحت اهتمامات كتب المناقب تندرج ضمن الكتابات المرتبطة بالتراجم والسير، ويُعد أدب المناقب إنتاجا صوفيا محضا، فمن خلالها توثق تراجم الأولياء طيلة عقود من الزمن، وبواسطته يستطيع الباحث في الحقل التاريخي أن يضبط ملامح الحياة الاجتماعية والفردية للأولياء المترجم لهم.

تؤسس كتب المناقب عادة لتاريخ الحياة الفردية، وقد تكون هذه الميزة المعظمة للفرد داخل الأدب المنقبي، ذات حمولة إيجابية بل وإضافة نوعية من أجل تشكيل نظرة عن فئة الأولياء ذوي خصوصيات مشتركة[2]، تمكن من تتبع حياتهم العامة عبر الحياة الخاصة لكل

[1] _ أيوب بن حود، بلقاسم مالكية، **أدب المناقب المفهوم والجذور**، "مجلة مقاليد"، العدد 10، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2016، ص 76.

[2] _ محمد سعيد، **الإمكانيات ومحدودية النص المنقبي في الكتابة التاريخية مناقب أبي إسحاق الجينياني أنموذجا**، "مخبر البحوث والدراسات التاريخية والاجتماعية"، العدد 06، جامعة معسكر، الجزائر، ص 143.

ترجمة على حدى، فقد قال محمد مفتاح :"**بالإمكان أن تكون الترجمة حرفية ذات وقائع حرفية لكن يجب بالرغم من ذلك البحث في مضمونها.**"[1]

إذا كان الخطاب المنقبي ذو لهجة تبجيلية تدافع وتضخم الحدث الصوفي فإن المعطيات التاريخية التي ترتبط بكل ولي تسمح بتشكيل رصيد من المعلومات التاريخية في زمان ومكان محددين.

تعد تراجم الأولياء والأفراد التي يفصح عنها الخطاب المنقبي مرجعيات أساسية للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي للأولياء، فالتراجم على اختلاف صيغها وشكلها في الطول أو القصر، وفي توجهاتها، تظل ذات حضور متميز ومهم ضمن مجموع التراجم، وهذا ما يجعل الأدب المنقبي من أكثر الإنتاجات الفكرية التي تضمن حضور كل ترجمة على درجة من المساواة مع بعضها البعض، بل أن التراجم تتيح إمكانية رصد تاريخ حياة الأولياء داخل النص المنقبي على أساس أنها سلسلة من المسارات التاريخية، وإذا كانت الكتابة المنقبية تمنح أفضليتها للفضاء المجالي، فإنها بالمقابل تقدم على سحق الزمن الذي لا يبرز إلا بشكل عرضي ووفق منهاج معين يشد على الالتزام أولا بتقصي المرجعية الثقافية للمؤلف، وثانيا القضية المراد إثباتها في المؤلف المنقبي الذي يعد وثيقة لا غنى عنها لمعرفة جوانب معينة من التاريخ[2].

[1] _ محمد مفتاح، **الواقع والعالم الممكن في المناقب الصوفية ضمن التاريخ وأدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ملتقى دراسي، المملكة المغربية، 1988، ص 30_31.

[2] _أمال لدرع، **الخطاب المنقبي وصياغة الحدث التاريخي**، المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة، "مجلة منتدى الأستاذ"، العدد18، 2016، ص164.

المبحث الأول:

الذهنيات وجدلية الحياة والتصّوف

* المرجعية الفكرية للفقهاء والمتصوفة
* التصوّف والجنوح إلى حياة الزهد
* الزّهد عند النّساء
* مخالطة السلاطين واختلاف الذهنيات حولها

المطلب التمهيدي: المرجعية الفكرية للفقهاء والمتصوفة

لا شكّ أنه قبل الغوص في ذهنيات ساكنة المغرب الأوسط وتفسيرها يجب أن نبحث عن أهمّ الروافد الفكرية والمناهل التي شكّلت تلك الذهنيات أوأثّرت عليها، خصوصا ما يسمى بالمرجعية الفكرية والتي استسلم لها فقهاء ومتصوّفة ذلك العصر.

إن أوّل تلك المؤثّرات نجد العقيدة الأشعرية التي حظيت العقيدة باهتمام مجتمع المغرب الأوسط وجعلوها اختيارهم العقدي، إلى جانب ذلك كان الفقه المالكي أحد أهمّ المؤثّرات التي صنعت عقل وذهنيّات ومجتمع المغرب الأوسط، دون أن ننسى التصّوف الذي عبّروا عنه بطريقة جنيد السّالك[1].

حاولت المذاهب الفقهية والعقدية مزاحمة المذهب المالكي في مناطق إلا أن أصوله كانت السبب الرئيسي في صموده واعتماده لدى سكان المغرب الأوسط، فأخذ هذا الأخير تأييد المذهب الحنفي وكذا أن يتصدر على المذهب الظاهري[2] .

جنح فقهاء المغرب الأوسط إلى غلق باب الاجتهاد، حيث يقول ابن مرزوق: "لم يكن في مغربنا هذا كله في القرن الخامس فضلا عن الثامن مجتهد في الأحكام الشرعية منشغل فيها برأيه"[3]. جعل الذهاب إلى التقليد أثرا سلبيا على شخصية الفقهاء[4].

---

[1] _ كرطالي امين، **الفقهاء والحياة السياسية في المغرب الأوسط خلال القرنين (9_10هـ/15_16م)**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2013_2014، ص 22.

[2] _ هو مذهب يقوم على إنكار القياس، واتباع ظواهر النصوص، ظهر في القرن الثالث هجري بالمشرق على يد داوود الظاهري (ت 270هـ). ينظر: أحمد بكر محمود، **المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب**، ط1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1990، ص 21.

[3] _يحي المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، ص 312.

[4] _ قال الفقيه أبو العباس أحمد بن زكري:" وان من ذكر من أهل التقليد كما هو الغالب من حال أهل العصر ..." ينظر: الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب**، تح عمر حجي،ج12، د ط، دار الغرب الإسلامي، لبنان،1981، ص 8.

كانت المرجعية الفكرية هي المتحكمة في فتاوى الفقهاء السياسية ويظهر ذلك في مسائل الإمامة والعلاقة بين الراعي والرعية وفتاويهم القاضية بوجوب اعتزال الفتن، وطاعة ولاة الأمور في المعروف وعدم إعانة الخارجين على السلاطين[1].

كانت العديد من النصوص المرجعية للمذهب المالكي تحض على التجافي عن خدمة السلاطين، كما أضاف الباحث بقوله: "بعد دخول العثمانيين إلى أراضي المغرب الأوسط قاموا بإدخال المذهب الحنفي، ومع ذلك فقد ظل مذهب الامام مالك هو السائد"[2].

بعد دخول العقيدة الأشعرية بلاد المغرب طرحت إشكالية ماهية العلاقة بين المذهب المالكي والعقيدة الاشعرية، فيوجد من رأى أنها علاقة انسجام، ومن رأى أنها علاقة تناقض، وقد سئل ابن رشد الجد هل يكون الرجل مالكي وأشعري في نفس الوقت؟ فرجّح أنه لا غلابة في أن يكون الفرد أشعريا في الأصول ومالكيا في الفروع.

وجعلت عقيدة أهل السنة والجماعة الفقهاء يلزمون بطاعة السلاطين، رغم ما كان يبدر من بعضهم من تصرفات مخالفة لتعاليم الإسلام ترجيحا منهم للمصلحة، كما أضاف أيضا ما ذكره أبو العباس الزواوي في قوله:

ولا يكون بطاوي الفسق منعزلاً إلا بكفر فلا بد من بدل

بمثل هذا أتانا غير ما خير إذا في الخروج مزيد من الفسق والزلل[3]

[1] _كرطالي امين، **المرجع السابق**، ص 24.

[2] _ نفسه، ص 25.

[3] _ جمال قنان، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر،1500_1830م**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر،1987، ص 31.

المطلب الأوّل: التصوّف والجنوح إلى حياة الزهد

شهد المغرب الأوسط خلال القرن 10_11هـ جنوحا إلى التصوف والذي يتجلى في عدة مظاهر وقد حوى كتاب البستان الكثير من المعلومات التي تتجلى من خلالها الذهنيات التي كانت سائدة آنذاك، ويتضح ذلك في غلبة الزهد في الحياة.

ومن مظاهر الزهد ما ورد في ترجمة أحمد ابن الحاج البيدري الذي كانت لا تساوي الدنيا عنده جناح بعوضة، وكان من شدة التقشف يأكل خبز الشعير بلا ادم ووصف نفسه أنه ممن ضيقت عليه الدنيا، وكان زاهدا في الدنيا لا يخاف في الله لومة لائم[1]، بينما في ترجمة أحمد الغماري فقد ذكر أنه من اكابر أولياء الله تعالى فكان منقطعا للعبادة وتلاوة آيات الله، مع الصبر على ملازمة الخلوات وترك جميع الشهوات[2] .

كما بلغ بعض المتصوفة حد الاستغناء عن الطعام أو الاكتفاء بالقليل منه فقط، فقد كان الحسن الراشدي أبركان لا يقتات إلا بما يلتقطه من الطعام الذي يتساقط في الطرقات وفي ثقوب الحيطان، اوانه يواصل الصيام لا يفطر من الجمعة إلى الجمعة، ولا يأكل في كل ليلة إلا اجاصة[3]، ومثله كان محمد بن أحمد الإدريسي الذي ربما وضع له الفطور في رمضان وغيره من طيب الطعام فيشتغل عنه بالنظر حتى يؤتى سحوره، فيتركهما حتى يصبح ويواصل الصوم والنظر كما عرف أيضا بزهده عن المناصب السياسية بحيث أنه يباعد الملوك رغم إقبالهم عليه وحرصهم على تقريبهم ورفقتهم، ولكنه لم يتولى أي منصب.

وفي نفس السياق نجد في ترجمة محمد السنوسي أنه كان زاهدا ومعرضا عن الدنيا وهذا معلوم لدى الجميع، فقد أرسل له السلطان في أخذ شيء من غلات المدرسة سيدي الحسن أبركان فامتنع فألحّ عليه فكتب في الاعتذار كتابة مطولة فقبل منه، وكان يبغض الاجتماع

[1] _ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص 71.

[2] _نفسه، ص 101.

[3] _نفسه، ص 192.

بأهل الدنيا والنظر إليهم، ويضيف أنه كان رفيع الهمة عن اهل الدنيا يتطارحون عليه فيعرض عنهم، وقد أتى اليه ابن الخليفة يوما ومعه عين، فقبل يديه ورجليه وطلب منه قبولها فتبسم في وجهه ودعا له وأبى، فلما أيس منه قال له: " تصدق بها يا سيدي من شئت من الفقراء فامتنع عنها[1]، وكان لشدة خوفه ومراقبته كل لحظة تفكره وكانه مسجون فيها، وكان يصوم يوما بيوم صوم داوود عليه السلام، ويفطر على يسير من الطعام، ولا يبحث في يوم فطره عما يأكل وربما بقي ثلاثة أيام أو يزيد لا يأكل ولا يشرب، إن أتى الطعام أكل وإلا بقي كذلك[2].

أما يوسف الزيدوي فكان لا يلتفت إلى أحد من أبناء الدنيا، فنزه نفسه عن دني المكاسب، ورغب بها عما يهين المطالب، وحقن ماء وجهه عن التعرض لما يحمد تاركه شرعا، ويندم فاعله عادة وطبعا، فكان لباسه كساء صوف لا غير[3] .

كما أشار صاحب البستان أن ابن الفتوح التلمساني الذي كان شابا حسن الصورة مرت به امرأة جميلة فصار يصرف النظر إلى محاسنها من طرف خفي، فقالت له اتق الله يا ابن الفتوح، فنفعه الله بكلامها، فزهد في الدنيا[4].

عرف المتصوفة كذلك بالألقاب التي تميزهم بزهدهم ونسكهم فقد ورد في ترجمة أحمد ابن زاغو المغراوي بوصفه العارف الصالح الولي الزاهد[5] ومثله كان أحمد زروق[6]، وكذلك إبراهيم المصمودي التلمساني الذي وصف بالولي الزاهد الذي أخذ بالغاية القصوى في الورع والزهد والإيثار[7] بينما قاسم ابن ناجي عرف بالبارع الزاهد والورع[1]، أما علي بن عبد النور وأبو

---

[1] _ نفسه، ص 418.

[2] _ نفسه، ص 422.

[3] _ نفسه، ص 504.

[4] _ ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص 451.

[5] _ نفسه، ص 116.

[6] _نفسه، ص 121.

[7] _ نفسه، ص 131.

يعقوب التفريسي فقد اعتبرا من الأولياء العظام والزهاد في الدنيا[2]، ونصر الزواوي الذي كان زاهدا عابدا ووليا صالحا[3]، وذكر أيضا أبو مدين الإشبيلي الذي كان زاهدا فاضلا[4].

إن جنوح الكثيرين إلى التصّوف لا يعني أنه قد تشكّلت لدينا طبقة تعتمد فقط على الكشف الصوفي تحت مسمى "الحقيقة " ومبتعدة عن أحكام الشريعة وضوابط الفقه الإسلامي فقد اعتبر الجمع بين ف الفقه والتصوف هو عين الحقيقة بقول أحمد زروق: "فلا تصوف إلا بفقه، إذا لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا بفقه، ولا فقه إلا بتصوف، إذا لا عمل إلا بصدق وتوجه هما إلا بالإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجميع في الحكم بتلازم الأرواح الاحياء.

إن مكانة المتصوّفة في مجتمع المغرب الأوسط خلال العهد الزياني قد أدّت إلى بروز رجال التصوف على الفقهاء لعدّة أسباب أبرزها وجود مجموعة الفقهاء همهم الوحيد جمع المال والجاه، وهو الأمر الذي دفع بالعامة إلى الوثوق بالمتصوفة والركون اليهم، فكان بعض الفقهاء يحاولون بعلمهم كسب المال والجاه، بينما كان رجال التصوف يسلكون طريق الزهد والورع ومجانبة السلاطين.

وربّما حاول بعض الفقهاء الوقوف ضد تيار التصوّف لكن كل هذا لم يعط انطباعا خاطئا حول العلاقة بين صوفية وفقهاء المغرب الأوسط، لأن العلاقة ظلت بين الفريقين حسنة، وذلك لعدة اعتبارات أبرزها أن معظم الصوفية كانوا فقهاء بأتم معنى الكلمة، حيث جمعوا بين الفقه والتصوف تحصيلا وتدريسا وتأليفا مثل أبي إسحاق الخطي الذي كان له علم بالنحو والمنطق وأصول الفقه والحكمة والتصوف.

---

[1] _ نفسه، ص 284.

[2] _ نفسه، ص 491.

[3] _ نفسه، ص 489.

[4] _ نفسه، ص 223.

وبسبب الجمع بين الفقه والتصوف لم يحدث تعارض أو تصادم كبير لا سيما في جوهر العقيدة بين المتصوفة والفقهاء، مادام المتصوفة يقرون بعلم الفقه وأهميته. فيمكن القول أن التعارض الفكري بين الفقهاء والمتصوفة في بعض الأفكار والتصورات ومنهج التفكير إلا أن هذه العلاقة اتسمت بالتعايش.

المطلب الثاني: الزّهد عند النّساء

برزت ظاهرة التصوف النسائي بالمغرب الأوسط محتشمة ضمن نصوص التصوف، بل وفي أحيان كثيرة كانت مغيبة، بحيث أن الموضوع في حد ذاته يرمز إلى حرمة البيوتات[1] التي لا يجوز الحديث فيها، لذلك جاءت رواياتهم محدودة ومضبوطة بخطوط العرض والحشمة، وإذا كان ابن مرزوق الخطيب قد اظهر لينا نوعا ما في الكشف عن أسماء الصالحات من بيت المرازقة[2]، فان ابن قنفذ القسنطيني تكتم عن ذكر الأسماء بما في ذلك اسم والدته، ولم يفصح عنه[3].

أظهرت إشارات ابن مرزوق الخطيب أن نشأة البيوتات الصوفية في المغرب الأوسط في تلمسان تحديدا التي صارت الحقل الطبيعي ومنبت التصوف النسائي بفضل المناخ الملائم الذي وفره الفقهاء والصوفية والعلماء للمرأة التي تندمج في منظومة التصوف وطرقه وطقوسه.

---

[1] _البيوتات: يرمز لفظ البيوتات في العصر الوسيط إلى مميزات تكسبها أسرة معينة، ويستمر فيها على مدار 3 او 4 اباء في حقول العلم والتصوف والثروة والجاه والفروسية، وهي من الالفاظ التي شاع استخدامها من طرف نخبة المغرب الأوسط اللذين كتبوا في مناقب أسرهم الصوفية أو في البيوتات التي عاصروها، استخدم يحي ابن خلدون لفظ البيوتات للأسرة التي تكون مرتبطة بتيار أو طريقة صوفية معينة يتوارثونها ويعتكفون على قراءة مؤلفاتها وممارسة طقوسها. ينظر: ابن مرزوق الخطيب، **المصدر السابق**، ص 175؛ يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح عبد الحميد حاجيات،ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 116.

[2] _ من أسماء الصوفيات من المرازقة اللائي ذكرهن محمد بن مرزوق، أم جده محمد بن أبي بكر، وهي زينب بنت أبي إسحاق، وزوجة جده فاطمة من بيت بني النجار وأمها، ابن مرزوق الخطيب، **المناقب المرزوقية**، تح سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، المملكة المغربية، د ت ن، ص ص 149_168_188.

[3] _ابن قنفذ القسنطيني، **انس الفقير وعز الحقير**، تح محمد الفاسي، د ط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، المملكة المغربية، 1965، ص 50.

فعلى المستوى الشرعي صارت المرأة داخل هذه البيوتات ملزمة بالمحافظة على الشريعة ومستفيدة من مفرزاتها القانونية، فكانت لا تستثنى من ميراث والدها وغير ملزمة بالزامات الفقهاء الذين سلم بعضهم بجواز شهادة الصالحات من النساء، وهذا ما حررها من اشكال الاكراه الاجتماعي، الذي كان يمارسه الرجل على المرأة العادية، بالإضافة إلى استفادتها كغيرها من أعضاء البيت الصوفي من الامتيازات المخزنية المتمثلة في اعطيات السلاطين[1] الامر الذي جعلها تتشبث بالتصوف منهجا في الحياة.

من أجل استمرار المرأة المنتمية إلى البيوتات الصوفية وانتمائها إلى الطريقة الصوفية كبراء هذه البيوت يعمدون إلى تعزيز علاقاتهم الصوفية واخوتهم وصحبتهم في الطريقة بالمصاهرة، أبرزهم في تلمسان مصاهرة بين بيت النجار لبيت المرازقة، وبيت ابن صاحب الصلاة[2]، الامر الذي جعل المرأة الصوفية تغادر بيت ابيها إلى بيت زوجها فتبقى في نفس الوسط الروحي الذي غادرته.

لما صارت البيوتات الصوفية من البنى الأساسية لحركة الصوفية وخزانها الذي يمدها بالأطر الصوفية أصبح هناك مناخ مناسب لخروج المرأة للمشاركة في اجتماعات الصوفية وحلقات الذكر وحضور احتفالات المواسم الدينية[3] .

في ظل غياب الكتابة الصوفية المنظومة والمنثورة نجد تآليف عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن المديوني لكتاب في الادعية الصوفية[4].

شبع وعاء الصالح الذي يمثل الشريعة والزهد والتصوف، ويعتبر ظاهرة دينية وسلوكية وزهدية واجتماعية ليست مقترنة بفئة اجتماعية دون غيرها، بما في ذلك الصلاح النسائي،

---

[1] _ الونشريسي، **المصدر السابق**، ص 172.

[2] _ ابن مرزوق الخطيب، **المصدر السابق**، ص 163.

[3] _ابوالقاسم البرزلي، **جامع مسائل الاحكام لما نزل من المفتيين والحكام**، تح محمد الحبيب، ج 4، د ط، دار الغرب الإسلامي، لبنان،2000، ص 188.

[4] _احمد باب التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تح علي عمر، ج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2004، ص 182.

فقدد اهتم ابن مرزوق الخطيب برصد صالحات تلمسان داخل البيوتات الصوفية ووصفهن بانهن كن من اهل الزهد والتقشف والمجاهدات، منهن إحدى بنات الفقيه أبي عبد الله الكتاني بتلمسان والتي كانت مؤثرة للخلوة بموضع كهف الضحاك، ولما تزوجت بالصوفي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت 681هـ/ 1282م) صارت ملازمة للتقشف والعبادة مثل زوجها، مقتصرة على ما يقتصر عليه من القوت، فقد كان متقشفا إلى الغاية في مأكله مقتصرا على القوت الذي لا يكاد يحفظ جوعه ويكثر من الصوم ولا يفطر إلا أحيانا، في حين كان يلبس اللباس الجميل ويركب الفاره من الدواب[1] .

بالإضافة إلى فاطمة بنت أبي زيد بن النجار زوجة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق الثانية التي كانت من الصالحات[2]، وعائشة والدة محمد بن مرزوق الحفيد(ت 842هـ/ 1438م) بصيرة بتفسير الرؤية ومهتمة بمطالعة الكتب[3]، ومن بيت أبي إسحاق إبراهيم الذي كانت امه مجابة الدعوة، وقد تمنت الموت في بيت المقدس، فكان لها ذلك ليلة 27 من رمضان سنة 723هـ، بالإضافة إلى زوجة الفقيه أبي العباس أحمد القاضي الزرهوني التي كانت من خيار الصالحات على حد تعبير ابن مرزوق الخطيب[4].

ومن بيت الجلاب المرأة الصالحة بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب، ومن بيت ابن قنفذ والدة الخطيب القسنطيني[5]، واستمرت هذه الظاهرة ممثلة في والدة الحسن أبركان من بيت ابركان، بل أن الخادمات في هذه البيوت كن يتأثرن بالمناخ التعبدي السائد.

لقد أدى قرب النساء الصالحات من مشهد الحركة الصوفية والمشاركة في تفعيلها إلى تحولهن إلى أحد المصادر الأساسية في رواية أخبار الصوفية والكشف عن تفاصيل حياتهم الاجتماعية، وحتى أن ابن مرزوق الخطيب اعتمد في رصد أخبار ومناقب أسرته وكذا

[1] _ابن مرزوق الخطيب، **المصدر السابق**، ص ص 155_160

[2] _ نفسه، ص 168.

[3] _نفسه، ص 228.

[4] _ابن مرزوق الخطيب، **المصدر السابق**، ص 228.

[5] _ ابن قنفذ القسنطيني، **المصدر السابق**، ص 48.

بيوتات التصوف في تلمسان على روايات النساء الصالحات، وما يدل على ذلك استخدامه لعبارات اخبرتني الصالحة المباركة فاطمة بنت الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز وحدثتني الشيخة الصالحة عائشة بنت الأكحل وأخبرتني المرأة الصالحة بنت الشيخ ابن علي الحسين بن الجلاب[1].

في حين تمثل دورهن الاجتماعي في التأثير على منطق العلاقات داخل التراتيب الاجتماعية، فاذا كان تغلغل الصوفية في البنية الاجتماعية قد فرض تراثا اجتماعيا أساسه القيمة الروحية لا التفاوت الطبقي، فان النساء الصالحات عمقن هذا الترتيب بان قبلن الزواج من الصوفي بغض النظر عن موقفه الاجتماعي، فاسقطن اعتبارات المال والجاه في شروط اختيار الزوج وعززن من القيمة الروحية كأساس ثابت في معادلة التراتب الاجتماعي، فأبو عامر من تلمسان كان من الأولياء الصلحاء الخطباء ونسبه معروف بالدين والصلاح، لكنه زوج ابنته لأبي العباس بن الخطان الضعيف المحتاج[2]، وقبول فاطمة بنت أبي زيد بن النجار وهي من نسب ثري يمارس أفراده حرفة صناعة الثياب، الزواج من الصوفي محمد بن أبي بكر بن مرزوق، بل حتى أمها كانت تخدمه وتبره[3]

إلى جانب تجربة التصوف النسائي داخل البيوتات الصوفية مارست النساء كذلك أسلوب المجاهدات العلمية الفردية القائم على الزهد والتقشف في المأكل والمشرب والانقطاع في الخلوة بالصيام والقيام المتواصل مع النزوع إلى الكشف، فقد كانت تجربة مؤمنة التلمسانية نموذجا بارزا في ولوج النساء مجالا كان حكرا على الصوفية الرجال فقد كانت بشهادة معاصرها ابن قنفذ القسنطيني تتميز بالورع والزهد والانقطاع خصوصا في أشهر رجب وشعبان ورمضان فكانت لا تساكن أحدا ولا يراها في زمن انقطاعها أحد من الناس ولا

[1] _ أحمد بابا التنبكتي، **المصدر السابق**، ص 175.

[2] _ نفسه، ص 162.

[3] _ ابن مرزوق الخطيب، **المصدر السابق**، ص 168.

تكلمه[1] وكان قوتها من عمل الغزل الذي كانت تمارسه وتقتني بثمنه ما تحتاج إليه، وهي في ذلك تتحرى الحلال في مأكلها، لذلك كانت تمتنع عن اكل طعام الناس[2] .

ساهمت النساء في تفعيل الحركة الصوفية ونشر التصوف الشعبي من خلال حضور حلقات الذكر الجماعي وتنشيط عنصري الرقص والغناء فيها[3]، خصوصا في البوادي حيث سلطة الفقهاء ومراقبتهم ضعيفة، ورغم ذلك فقد طالت انتقادات فقهاء المدن لهذه الظواهر لما كان يتخللها من الخروج عن قاعدة الشرع، لذلك وصفوا ادعياء الرباط المنتمين لهذه الحلقات بالجهل وحرموا حضورها وتنظيمها.

فضلا على زيارة القبور والأضرحة والتبرك بها[4]، بعد أن استحسن قطاع واسع من الفقهاء مبدا الزيارة[5]، وتشديدهم في طقوسها كطريقة الصلاة على القبر ووضع اليد على القبر ومسح الوجه بها وتقبيل القبر وأخذ ترابه للاستشفاء به فقد عد ذلك من الممارسات البدعية[6].

إلى جانب هذه الممارسات الطقوسية، ورد أيضا في نوازل الونشريسي ما يقيد مساهمة المرأة في أوجه الصلاح مثل تأسيس الزاوية، وحبس الأرض المزروعة كي تقدم قمحها للصوفية الفقراء في ليلة المولد النبوي، ناهيك عن أشكال الهبات التي كانت تقدمها في أوجه الخير وخدمة الدين بشكل هبات للمسجد والزاوية وعتقها للعبيد[7]، وافتدائها للأسرى، وهذه الأعمال لا يمكن للمرأة القيام بها إلا اذا كانت من بيوتات الثراء أو من كانت في وضع مادي مريح يسمح لها بهذا النوع من النشاط.

---

[1] _ ابن قنفذ القسنطيني، **المصدر السابق**، ص 81.

[2] _نفسه، ص 81.

[3] _الونشريسي، **المصدر السابق**، ج11، 30.ص

[4] _ نفسه، ج 2، ص 499.

[5] _احمد زروق، **عدة المريد الصادق**، تح ادريس غزوزي، ط1، مطبعة فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، 1998، ص 353.

[6] _ الونشريسي، **المصدر السابق**، 490.

[7] _نفسه، ج7، ص 114.

وقد يكون النشاط في مجموعه نوعا من رد الفعل على تيارات المجون واللهو النسائي الذي تصاعدت موجته في هذه المرحلة التي أثار فيها الونشريسي، ورصد ظواهرها في استفحال تبرج النساء واجتماعهن بالرجال في أسواق الغزل والصوف والمشي في الازقة عاليات الأصوات باديات الوجوه[1].

المطلب الثالث: مخالطة السلاطين واختلاف الذهنيات حولها

بلغ الزهد في الحياة إلى أن جعلوا من مفهومه وفق ذهنياتهم هو الزهد في المناصب السياسية والمناصب الإدارية، فكانوا لا يجالسون السلاطين ولا يقضون لهم امرا من أمور الدنيا، فقد ورد في ترجمة أحمد الونشريسي هجرته إلى فاس واشتغاله بالتدريس، حتى حصلت له كائنة من جهة السلطان في اول محرم عام أربعة وسبعين، فانتهبت داره فرحل إلى مدينة فاس واستوطنها[2].

ومثله كان الحسن الراشدي أبركان الذي زاره السلطان أبي محمد بن أبي تاشفين، وكان وزيرا ورفع السلطان إلى الشيخ بطنية فيها مال كثير، وهو لم يعرف بها، فلما خرج من عند الشيخ وضع السلطان البطنية في موضعه، ولم يتجاسر أن يضعها في يد الشيخ هيبة له، ثم رآها الشيخ فظن أن السلطان نسيها في ذلك الموضع فبعث وراءه وقال له:" ما هذا الذي ترك صاحبك؟" فقلت له: " يا سيدي لا أعلم، فأتيت السلطان وقلت له: أن الشيخ بعث ورائي وسألني عن البطنية التي تركتها في موضعك، فقال: نعم تركتها عن قصدي، وغرضي أن يفرقها الشيخ أو يفعل بها ما يشاء، فذهبت واعلمته بما قال السلطان، فقال لي: والله لا تبقى عندي ولا افرقها، وقل لصاحبك يفرقها هو أن أحب[3].

---

[1] _ نفسه، ج2، ص 500.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 136.

[3] _نفسه، ص 194.

يبين لنا هذا النصّ كيف أن الفقهاء والمتصوّفة كانوا لا يقبلون الأعطيات ولو من باب الصّدقة، خشية أن يُتّهموا في دينهم أو ورعا من أخذ مال السلطان الذي قد يكون أخذه من المكوس والضرائب، وأيضا حتّى لا يحاول السلطان بذلك المال شراء ذمّة الفقيه والمتصوّف.

وإذا كان الكثير من الفقهاء والمتصوفة كما نجده في رواية البستان يرفضون الدخول على السلاطين والعمال لقضاء حوائجهم، فإن آخرين رأوا أنه من المصلحة الدينية الدخول عليهم من أجل قضاء حوائج الناس وتبليغ المظالم، وهوما نقرأه فيما أورده ابن مريم في ترجمة إبراهيم بن علي الخياط، أنه كان يكثر الدخول على امير المؤمنين أبي يحي يغمراسن بن زيان لقضاء حوائج الناس، وربما دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرة، فقيل لأمير المؤمنين في ذلك، فقال: "دعوه فهو رحمة للمسلمين وما قضاه الله تعالى والله لا أمنعه من قصده"[1].

وفي نفس السياق نجد أحمد أبو العباس الذي عامله السلطان بلطافة حيث كان يعتبره من أبناء الصالحين وهوما جعل أبا العبّاس يستغل ذلك للتوسط لدى الرعية عند السلطان. ومنهم من أدرك دورهم فقد كان يستهزئ بهم ثم اصبح يطلب من السلطان أن يكون شفيعا لهم عنده مثل أبوجمعة المطغري وكذا محمد شعيب السنوسي الذي كان يحاول قضاء حوائج الناس[2] وهذا ما يؤكد المنزلة التي كان يحظى بها المتصوفة في المجتمع وعند السلاطين وهذه الأمور هي التي جعلتهم يقبلون عليهم ويحبونهم وروجت للتصوف والمتصوفة على حساب الفقهاء.

- **تأثير المتصوّفة في السلاطين:**

سرعان ما تأثّر بعض السلاطين بكلام المتصوفة، وأثمرت مجالستهم لهم وتتبعهم لأخبارهم في سلوكهم، حيث صار بعض السلاطين يميل إلى الزهد والتقشف حتى أن

[1] _نفسه، ص142.

[2] _نفسه، ص 416.

السلطان يتبرك بيوسف بن عمر الأنفاسي أبو الحجاج[1]، أما محمد بن عيسى أبوعبد الله الذي كان يزوره أمير المؤمنين في داره من أجل الدعاء[2]، بينما محمد بن مرزوق الخطيب الذي قربه السلطان منه عندما أمره بأن يخطب في المسجد وأثنى عليه بذكره[3].

وبلغ أنهم كانوا يعطونهم المكانة المرموقة ويظمونهم إلى طبقتهم، فقد أشار كتاب البستان في ترجمة محمد الآبلي أنه استدعاه السلطان أبو الحسن بعد أن ذكره له أبا موسى ابن الامام بأطيب الذكر، فنظمه في طبقة العلماء ولازمه، وطلبه السلطان أبو عنان وقدم تلمسان، فنظمه في طبقة أشياخه من العلماء[4]، بينما أحمد ابن زكري الذي بعث الشيخ إلى السلطان وطلب منه أن يكتب لسيدي أحمد بيتا في المدرسة، فكتب له البيت برتبته وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وجميع ما يمونه[5]، وكان السلطان يسأل سيدي محمد عن الفقهاء الحاضرين ويقول لهم:" ذلك فلان بن فلان وذلك فلان بن فلان حتى بلغ سيدي أحمد بن زكري هو ابن ذراعه. فقال له السلطان: يا سيدي ما يعجبني إلا ابن ذراعه فقيه مليح"[6].

ويضيف عن عبد الله الشريف التلمساني من شدة ذكائه وفطنته حتى تعرف الفقيه أبو القاسم بن رضوان رئيس كتبة المغرب حاله فعرف به السلطان عبد العزيز وبين له قدره في العلم، وعلو درجته فيه، فأجرى له مرتبا وافرا يؤتى داره كل شهر منة غير سعي فيه ولا تعرض لأجله، وهذا يدل على تعلق السلاطين بالفقهاء ورغبتهم في القرب منهم.

كما جاء في البستان ايضا في ترجمة إبراهيم بن يخلف التنسي الذي كان السلطان أبو يحي يغمراسن يخطبه للورود على تلمسان وهو يمتنع وانما يرد زائرا ويقيم شهرا ثم ينصرف

---

[1] _ نفسه، ص 495.

[2] _ نفسه، ص 396.

[3] _ نفسه، ص 444.

[4] _ نفسه، ص 381.

[5] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**،ص 113.

[6] _ نفسه، ص 114.

إلى تنس، ثم ارتحل إلى تلمسان بما كان شان مغراوة، فجاء إليه فقهاؤها والسلطان وطلبوا منه المقام في تلمسان فأجابهم واستوطنها[1]

كان السلاطين يحبونهم ويخافون منهم ويعظمون جنابهم وحرمهم المقدس، فقد كان السلطان يعقوب المنصور يخاف من شعيب بن الحسن الاندلسي[2].

من شدة بلوغ رجال التصوف مكانة عالية، صار السلاطين يعتقدون فيهم وفي كراماتهم، ومنهم من تأكد من مكانتهم وذلك بحوادث جرت لهم، فذكر ابن مريم في ترجمة عبد الله الحوتي المغراوي أنه في ليلة وبينما هو نائم إذ بثعبان ملتو على رقبة السلطان، وفهمه على فم السلطان، والسلطان يصيح، وهو في كرب عظيم واتجه إلى دار الشيخ ودخل السلطان على الشيخ تائبا متضرعا، فصاح الشيخ يا ثعبان يا مرزوق، فنزل ودخل بينه وبين عباءته، ثم حبس السلطان على الشيخ كذا وكذا من روض، ويضيف أن السلطان أتى ليصلي في جامع الحنايا ليصلي الجمعة، وكان في الجامع الشيخ، كان الخدام يفرشون له الملاحف لكي يمشي عليها حتى يصل الجامع، فقال الشيخ للسلطان: "تكبرت تمشي على الملاحف " فقال له السلطان:" أنا تائب لله" فقال له الشيخ: " من تاب تاب الله عليه والسلطان على غير وضوء لم يجد الماء في البئر قبل دخوله الجامع وبعد توبته وجد الماء[3] .

وأورد في ذكر محمد بن أحمد الادريسي أنه استخلصه السلطان أبو عنان واختاره لمجلسه العلمي، ورحل به إلى فاس، فتبرم الشيخ من الاغتراب، ورد الشكوى، فاحفظ السلطان بذلك، ثم بلغه اثناء ذلك أن عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان اوصاه على ولده، واودع له مالا عند بعض الأعيان من تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة وسخط على الشريف بذلك ونكبه، وقام في اعتقاله شهرا، ثم اعتبه بعد فتح القسطنطينية واعاده إلى مجلسه العلمي إلى أن هلك السلطان أبو عنان، ثم استدعاه السلطان أبو حمو يوسف بن

[1] _ نفسه، ص158.

[2] _ نفسه، ص 233.

[3] _ نفسه، ص 271.

عبد الرحمن من فاس وتلقاه هو وزوجته وابنته، وكان السلطان يحبه حبا عظيما، ولا يخطبه إلا بسيدي ولما انحل نظام ملكه عرض عليه وديعة فامتنع بالكلية، ولما سجنه أبو عنان، ورد اثر ذلك على السلطان شيخ غريب من إفريقية يسمى يعقوب بن علي، فساله عما يقال في إفريقية، فقال:" خيرا غير أنهم سمعوا بسجنك عالما شريفا كبير القدر، فلامك فيه العامة والخاصة فأمر بإطلاقه والإحسان إليه بلا سبب منه ولا معرفة، وهي أعظم محنة امتحن بها ومازال السلطان يعتذر منه حتى مات، وتأسف السلطان لموته، وارسل لولده الفقه عبد الله واكرمه، وقال ما مات من خلفك إنما مات أبوك لأنني أباهي به الملوك، ثم أعطاه المدرسة وأجلسه فيها[1].

كان بعض رجال التصوف يدخلون على السلطان ويجالسونه فذكر البستان ابني الإمام اللذان كانا خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني، وكان لهما من الشهرة في أقطار المغرب ما أتيت لهما في أنفس الناس عقيدة صالحة، فاستدعاهما وقت دخوله، فأدنى مجلسهما، وزاد في تكريمهما، ورفع محلهما عن أهل طبقتهما، وأجمل مجلسه بهما، وبعد أن ملك أبو ثابت المغرب عاد الكتاني والأخوان إلى المغرب فأوصلهما إلى أبي حمو وأثنى عليهما، فاغتبط بهما أبو حمو واختط لهما بتلمسان مدرسة، وأقام عنده مع ابنه أبي تاشفين، وكانت لهما مكانة كبيرة في البلاط المريني[2].

شكلت فئة الفقهاء مكانة متميزة في المغرب الأوسط لتعدد مجالات اختصاصها في المجتمع، ولارتباطها بشؤون السياسة والحكم، حتى أن السلاطين انحازت اليهم، فنجدهم قد نالوا حيزا من وصايا السلطان أبوحمو موسى الثاني (ت 760هـ_791هـ/ 1359_1388م) لولده أبي تاشفين الثاني (791هـ_795هـ/ 1388_1394م) حيث امره باتخاذ فقيه يخص به نفسه، ويستشيره في أمور الدين والسياسة، فحثه بقوله،: فلتختر لنفسك فقيها عالما موسوما بالصلاح، سالكا طرق الرشاد والفلاح، يرشد إلى الهدي، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد

[1] _نفسه، ص 315.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 248.

الأمور ويأمر بالسداد، ليبين لك ما اشكل عليك من الاحكام، وما تأتيه من الحلال وتدعه من الحرام وما تقف عنده من الأمور الشرعية، التي هي قوام الملك والرعية، وما يصلح لك من الأمور الدنيوية والأخروية، ويخول لك الموعظة ويذكرك بأحوال الاخرة."[1]

ونجد أن تعامل الفقهاء مع السلطة متباين بين مؤيد ومشارك في الحكم ومعارض رافض لذلك، ومحايد راكن للاعتزال متفرغ للعلم والتأليف، وقد شخص العالم والفقيه أبو العباس أحمد الونشريسي تطور علاقة الفقهاء بالسلاطين والامراء بقوله:" واعلم أن شر العلماء علماء السلاطين، وللعلماء معهم أخول، فكان الصدر الأول يفرون منهم وهم يطلبونهم... ثم جاء أهل العصر الثاني فطمحت نفوسهم إلى دنيا ما حصل لهم... فان دعوهم أجابوهم إلا بالقليل ... ثم اكن فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة، وأكثرهم اذا دعي أجاب."[2]

- **اعتزال السلاطين:**

ومن الفقهاء والمتصوفة من ركن إلى حياة العزلة رغبة منهم في التفرغ للعبادة والتصوف والفقيه العالم أحمد بن محمد الشهير بابن زاغو المغراوي حيث فاق اقرانه في العلم وضرب به المثل في الزهد والعبادة[3]، وكذلك نجد الفقيه إبراهيم التنسي المطماطي الذي ذاع صيته حتى بقي السلطان يغمراسن(633هـ_681هـ/1235م_ 1282م) خطبه للورود على تلمسان فيمتنع، وحتى بعد أن استوطنها ظل بعيدا عن الرتب السلطانية[4].

ومن أشهر شيوخ التصوف الفقيه أبوعبد الله بن مرزوق الذي انكب على كتب التصوف وانقطع للعبادة، ونال منّ السلاطين وتقديرهم ما جعله يتفادى لقاءهم خاصة في مسجد الطلبة حيث يصلي الشيخ فكان تارة يتسبب بالنافلة حتى يئس السلطان يغمراسن من الانتظار وينصرف، وتارة يخرج من المسجد دون أن يشعر به السلطان.

---

[1] _ نفسه، ص 249.

[2] _الونشريسي، **المصدر السابق**، ج2،ص 481..

[3] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 118.

[4] _ نفسه، ص 158.

أما الفقهاء الذين وقفوا موقف معارضة للسلطان والتزموا الجرأة في قول الحق والنصح عن طريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، الفقيه أبو العباس الونشريسي الذي سارع إلى الإعلان عن موافقته الصريحة من سلاطين بني زيان منتقدا ما يقومون به من تصرفات غير شرعية، كتقديم الجهال على الفقهاء في تولية المناصب الشرعية كالقضاء، وعدّها من البدع المحرمة التي لا يجوز السكوت عنها[1] .

أما الفقيه أحمد بن يوسف الراشدي المليانى، فقد رفض البقاء في مدينة تلمسان مدة طويلة بسبب معارضته لسياسة بني زيان، حيث عاب عليهم تدهور الأخلاق وانتشار الفساد، وانتقد موقف السلطان أبي عبد الله محمد الخامس بن محمد الثاني(910هـ_922هـ/ 1505م_ 1516م) نتيجة لمسالمته للإسبان ومصالحته لهم بعد احتلال مدينة وهران، وظل ينتقد سياسة أبي حمو الثالث إزاء موقفه المخزية من العدو، وسارع للاتصال بالأتراك إلى جانب أهل تلمسان لمقاومة الاسبان[2].

كان هؤلاء الفقهاء من الفئة التي فضلت الابتعاد عن الحكام، ورفضت أن تكون موضع تسخير لخدمتهم والدعاية لشخصهم، ولعل من أسباب انعزال بعضهم والتجائهم إلى الزهد والتصوف هو ضغط السلاطين عليهم مع جهرهم بالظلم والسكوت عن المنكر والفساد.

كان الأولياء ممن يهدون الناس والسلاطين وينصحون بالابتعاد عن الظلم ويقدمون الفتاوى للإرشاد، ففي ترجمة أحمد بن الحاج اليبدري، وقد كتب له الفقيه أبو العباس أحمد البجائي الشريف لأمه سؤالا:"... ما جوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار، وانتشر فيه الباطل والسكر كل انتشار، وذل فيه المسلمون وعز الكافر، وارتفع فيه الجور والظلم ... ثم أن انسانا اضطر إلى أخذ العلم من علماء المذكور ... وهول يسوغ له الشراء من بعض المبيعات الممكسات أن اضطر إلى ذلك؟ وهل يسوغ له أخذ العلم من علمائه مع عدم

[1] _ نفسه، ص 135.

[2] _ كرطالي امين، **المرجع السابق**، ص 102.

تغييرهم لما ذكروا واقامتهم بالموقع المذكور ... أم يجب عليه أن ينتقل من ذلك الموضع لغيره، فأجابه سيدي أحمد المذكور بما هذا نصه:" الحمد لله الواجب على المؤمن المحقق، الناظر لنفسه نظر مشفق، أن يفر بدينه من الفتن ولا يقيم إلا في موضع تقام فيه السنن، ولا يأخذ من علم دينه ما يحتاج اليه إلا ممن تظهر عليه اثار الخشية والخضوع ويطلب ذلك في أقطار الأرض ونواحيها بدليل: " الم تكن ارض الله واسعة فيها جروا فيها هذا مع الإمكان ... ولكن لا يشغم المعيشة غشما وليعطي الورع حقه، ويستعمل في ذلك اجتهاده ورفقه ... فان اقتصر على ضرور بأنه لم يخف على دينه اختلالا إذ لو كانت جيفة لكانت قوت المؤمن منها حلالا"[1].

بينما جاء في ترجمة الحسن الراشدي أبركان اخبرني بعض الصالحين من اصحابنا أنه كان بمسجد درب صوفة فلما رمى السلطان بحجر عظيم سمعنا صوتا كالرعد القاصف، فوقع بعض الناس على وجهه، فلما رؤوا ذلك ايقنوا الهلاك أن دام ذلك الامر، جاؤوا يطلبون إلى علمائهم ومشايخهم، وطلبوا منهم أن يخرجوا مع الأولاد الصغار بألواحهم يطلبون من السلطان أبي فارس العفو عن أهل البلد، فهبط مجموعة من الشيوخ للشيخ الحسن للشفاعة فأبى أن يقابل أبي فارس وأرى في منامه أمرا عظيما، أن أبا مدينا والشيخ الحسني قد شتتوا الجيش، ورأى أيضا أن الشيخ أبي الحسن في الدرج وبيده سيف ساعد نازل ومن تلك الليلة عرف مقام سيدي الحسن وصار يعظمه كثيرا[2].

كما كان الأولياء بمثابة نور يسطع في مجالس السلاطين وكانوا يستشيرونهم ويرجعون إلى أفكارهم، ويقومون بالنصح بما يستطيعون إذا ما حصل حدث سياسي وتقديم الأمثلة بما جاء به الصحابة والسلف، فقد وردان أبويزيد ابن الامام كان من العلماء الذين يخشون الله، وأمير المؤمنين أبا الحسن قد ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد فقال له أبو يزيد: " لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلي فيه ركعتين كما فعل علي ابن أبي

[1] _ نفسه، ص79.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 179.

طالب". ومثله عبد الله الحوتي المغراوي أن من كراماته أنه ذكر أن سلطان تلمسان طلب رؤساء اهل البلد في السلف ورمى عليهم مالا عظيما، والناس في امر عظيم ثم انهم ذهبوا للشيخ سيدي عبد الله بن منصور يشكون له ما حصل بهم، ثم طلع للسلطان في المشور يطلب العفو عن الناس مما رمى عليهم، فامتنع وقال له الشيخ: "أفسدت بيت مال المسلمين وتطالبهم السلف، والله ما يعطونك إلا الوجع"[1] .

كما ذكر ابن مريم كذلك أن محمد المقري قال: "سألني بعض الفقراء عن سوء بخت المسلمين في ملوكهم اذ لم يأمرهم من سلك بهم الجادة، وتحملهم على الواضحة، بل من يغير في مصلحة دنياه غافلا عن عاقبة أخراه، فلا يرقب في مؤمن، ولا ذمة ولا يراعي عهدا ولا حرمة، فأجبته بان ذلك لان الملك ليس تشريفا، وذلك أنه كان فيمن قبلنا شرعا"[2].

مما سبق نجد أن ما ساد في ذهنية السلاطين حول الأولياء تباين بين محترم لهم، وناقم عليهم وهو نفس الحال بالنسبة لعمالهم.

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص270.

[2] _ نفسه، ص 307.

المبحث الثاني:

الذهنيات وتقديس الشيوخ وتقليدهم

* الطقوس الصوفية وصناعة المريد
* تقديس شيوخ الطّرق
* الجنوح إلى التقليد
* الإجـازات

من خلال كتاب البستان نرى الكم الهائل من الطقوس الصوفية التي هيمنت على الفكر وأعطت صورة واضحة عن الذهنيات آنذاك، فكان للكرامة والمكاشفة وطقوس صوفية أخرى حضور قوي لدى طوائف المجتمع فصاروا يعتقدون في كرامات شيوخ التصوف كما شاعت الأوراد، فصار لكل طريقة ورد خاص بها، ومن شدة ولع العامة والمريدين بشيوخ الطرق الصوفية شاع التقليد خصوصا في الفقه والتصوف.

المطلب الأول: الطقوس الصوفية وصناعة المريد

إنّ غلبة السلوك الصوفي وذيوع الفكر الكرامي وهيمنته على العقول ساهم في تشكيل الذهنيات والتّأسيس لسلوكيات وممارسات انعكست سلبا وإيجابا على الفرد والمجتمع.

1_الكرامات:

تنوعت موضوعات الكرامة بل وشملت مجالات عديدة لشدة تغلغل التصوف في أوساط المجتمع، ومن خلال كتاب البستان يمكن أن نرصد هذه المواضيع.

1_1 مقاومة الخوف: لقد مثل الوليّ الدرع الواقي لكافة طوائف المجتمع، فقد كان في معظم الأحيان الملجأ الأول خاصة للفئات المغلوب عليها والتي لا تستطيع من أمرها شيئا فكانت تلجأ لتلك القوة الغيبية التي يتميز بها الولي لدحض الخطر.

لقد كونت الأزمات التي عانى منها المغرب الأوسط في تلك الفترة ذهنية اللجوء إلى الولي حتى في أبسط الأمور، ففي ترجمة أحمد الغماري ورد أنه بسبب فتنة الجوع التي حصلت في تلمسان اشتغل الناس عن الصلاة وصارت المساجد خاوية من المصلين، دخل المسخد لينام ساعة لكن الله ولطفه به غيبه عن هذه الفتنة حتى فتح الله على الناس، وعندما استفاق

ظن أنه نام بعض الوقت فقط إلا أنه اكتشف أنه غاب حتى لا يشاهد ما حصل كما غيب الله أهل الكهف[1].

وفي نفس السياق يذكر صاحب البستان أن أبا مدين شعيب مر بأحد بلاد المغرب فرأى أسدا يفترس حمارا، وصاحب الحمار جالس بالبعيد على غاية الحاجة والفاقة، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد وقدّمه للرجل وقال له: "**أمسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة موضع حمارك**" فقال له الرجل بأنه يخاف منه، فطمأنه أبو مدين بأنه لن يؤذيه[2].

أما في ترجمة محمد بن أحمد الإدريسي فقد ورد أن محلّة أبي عنان بقسنطينة أرادوا أن يجتازوا واديا حاملا لا يجوزه إلا الفرسان، وكانت عنده حمارة حمل عليها فجازت مع الفرسان سالمة ونزلوا قرب الوادي، واتفق في تلك الليلة أن سيلا عم المحلة وانهدمت بيت السلطان ووصلها الماء، فتعجب السلطان وصاروا بأسوأ حال، فتعجب السلطان من الشيخ، وأمن العامة من محلة السلطان بفضل كرامة الولي[3]، وفي نفس السياق يذكر أيضا أن رجلا في فاس دخل السجن وقال: "**يا سيدي عبد الله بن منصور أنا جارك**" مستنجدا بعبد الله الحوتي المغراوي، ونام في تلك الليلة فرأى في منامه أن الشيخ قد أتى عنده وأمره بالخروج من السجن، وفعلا عندما أصبح الرجل فإذا بالنداء عليه بأن يخرج فلا خوف عليه[4].

لقد ساهمت كرامات الأولياء والاستنجاد بهم في التخلص من ذهنية الخوف من السلطة عندما يتحدى السلطان وينتصر عليه، وقد وردت في البستان أن عبد الرحمن اليعقوبي أرسل ولده من تلمسان إلى الباشا حسن بن خير الدين في المغرب، وأمره بأن يقعد عن الحركة لفاس وأنه لن يحصل له شيء منها، وأن لتلمسان أولياء سيدي بومدين والقطب

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 104

[2] _نفسه، ص 230.

[3] _ نفسه، ص 330.

[4] _نفسه، ص 268.

عبد الصمد، وقد أولى ولده سيفا، وامتثل ابنه لأمره ولحق الباشا بواد ملوية لكن الباشا لم يمتثل لأمر الولي، فكان له الهلاك[1].

2_1 التحكم في الكائنات: من كرامات الأولياء أيضا التحكم في الكائنات ودفع ضررها، مثل الحيوانات والجن والتكلم معها دون أن تؤذيهم، فكثير من الفقهاء كانوا يقرؤون المؤمن من الجان مثل أحمد أبركان الورنيدي، فقد زاره ابن مريم في بيته فسمعه يقرر ويقول: "**سمعتم**" وسمع صوتا يرد عليه بنعم ولم يكن معه أحد في البيت، ومثله كان إبراهيم المصمودي التلمساني، فحدث أن أحد أصحابه كان عنده في البيت وكان يقرأ القران وبيده قضيب يشير به إلى محل الوقف مثل عادة شيوخ التجويد، فاستغرب في خاطره عما يفعله فأجابه الشيخ بأنه من الشيوخ الذين يجود عليهم الجن القران[2]. أما يعقوب التفريسي فقد كان يدرس الجن والإنس في أن واحد، بل كان الجن أحيانا كثيرة يتصور بصورة أحد الحيوانات، فقد كان في المسجد مرة وإذا بحنش يدخل عليه وفي فمه براءة، فطلب دواة للكتابة وكتب ثم أعطاها للحنش بعدما تمرغ بين يديه كأنه يطلب منه العفو، فتساءل الطلبة عنه، فأخبرهم بأنه من قبيلة للجن في العراق جاء يطلب جوابا لفتوى[3].

ومن كرامات الأولياء أيضا التحدث إلى الحيوانات وفهم كلامهم والتحكم فيها، حدث أن الحسن الراشدي أبركان كان يتوضأ في الصحراء يوما، فجاءه أسد وبرك على سباطه فقال الشيخ: "**فتبارك الله أحسن الخالقين**"[4] ثلاث مرات فأطرق الأسد ومضى[5]. أما حمزة

---

[1] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 156.

[2] _نفسه، ص 491.

[3] _نفسه، ص 170.

[4] _ القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية 14.

[5] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 155

المغراوي، فقد ركبا فرسا وهي حامل وأثقل عليها بطلوعه عقبه فكلمته قائلة: "لقد أتعبتني يا حمزة" فكانت سبب توبته[1].

كما بلغ بعض الأولياء من الكرامة أن استطاعوا أن يروا الشيطان، فمما رواه سعيد ابن عبد الحميد العصنوني أنه زار يوما الحسن الراشدي أبركان في يوم حر فوجده في تعب عظيم والعرق يسيل عليه فأخبره بأنه كان جالسا فدخل عليه الشيطان بصورته، فقام إليه فهرب، وتبعه بالآذان فاستمر الشيطان في الهرب إلى أن غاب[2] .

1_3 الطيران وطي الارض: يقصد بطي الأرض أن ينتقل الشخص إلى أي مكان يريد مهما كانت المسافة بعيدة في مدة جد قصيرة، أو تغطية مسافات طويلة في غمضة عين، اكتسب العديد من أولياء المغرب الأوسط القدرة على الطيران وطي الأرض.

ذكر ابن مريم في بستانه أن أحمد الغماري من أصحاب طي الأرض والطيران في الهواء، ففي يوم التروية[3] جاءه وليان صالحان، سيدي أحمد وسيدي محمد، وطلبا منه أن يذهب معهما إلى الحج، فذهب معهما، وصاروا تارة يطيرون وإذا لقوا بحرا تطوى لهم الأرض ويجتازونه برجل واحدة، كما مروا على مصر فرأوها مضاءة بالمصابيح، فقضوا الحج ورجعوا إلى مكانهم في تلمسان، وشوهد في جسمه جراح عديدة، عندما سئل عن السبب أخبرهم بأنها حضر مع الوليين غزوة في الاندلس[4] بين المسلمين والنصارى وغيرها من الأماكن البعيد[5].

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 201.

[2] _ نفسه، ص 171.

[3] _ **يوم التروية:** هو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة، وهو من أيام الحج.

[4] _ المقصود بالأندلس هنا هو مملكة بني الأحمر في غرناطة.

[5] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 107.

وجاء في البستان أيضا أن أحمد ابن زكري من أصحاب طي الأرض، فقد نزلت ثلجة عظيمة وتعطلت منها الأسواق، وكان الشيخ إماما في المسجد، لما دخله لم يجد أحدا فيه، فسمعه المؤذن وهو في الصومعة فلم يجد له أثرا وإنما وجد له قدما في الباب وقدما في المحراب، والأبواب كلها مغلقة، وهذا دليل على طي الأرض، أما محمد البطوئي التلمساني فقد روى عنه سعيد المقري قال : "**قال لي سيدي محمد بن عيسى، كنت في دارنا التي تحت الجامع الأعظم ومشينا في صحن المسجد، فوقف ذلك الإنسان ورمى رجله فوق السطح وأعطاني يده فرفعني فوق السطح**" وهذا الإنسان هو محمد البطوئي التلمساني.[1]

1_4 المكاشفات: النص المناقبي الذي بين أيدينا جاء في طياته وجه آخر من أوجه الكرامة تمثلت في المكاشفات[2]، فلقد عرض لنا ذهنية سكان المغرب الأوسط التي تتجاوب مع هذه المكاشفات، بل وتؤمن بها إلى حد بعيد، إلى درجة أن بعضهم يتوقف مصيره على ما يعلمه الولي من الغيب حتى لا يقع في الاختيار الغلط.

فقد جاء في ترجمة أحمد أبركان الورنيدي أن أحد تلامذته قد دخل ليقرأ القران وهو على جنابة ولم يغتسل لأنه خاف على نفسه من الماء، فكاشفه الشيخ وقال له: "**تلك حدود الله فلا تعتدوها**"[3]، ودخل طالب آخر وقرأ "**وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**"[1] وكان

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 463.

[2] _**المكاشفات:** الكشف لغة، رفعك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشف الأمر يكشفه كشفا: أي أظهره، أما اصطلاحا فالمكاشفة كرامة من كرامات المؤمن الملتزم بالكتاب والسنة غير مبتدع، وعلى غير عادة مستمرة، وعرفها آخرون أنها حالة من الشفاف الروحي التي يصل إليها الإنسان الصالح المؤمن حقا، فتتكشف له بعض أمور الغيب، أما المكاشفة عند الصوفية فهي رفع الحُجب عن قلب الصوفي وبصره، باتحاده مع الله، ليعلم صاحب الكشف بعد ذلك كل ما يجري في الكون، وأن يكشف للصوفي معان جديدة في القرآن والسنة والآثار فيما يعرف بعلم الحقيقة التي لا يعلمها علماء الشريعة أو علماء الظاهر. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج 9، احياء التراث العربي، بيروت، 1999 ص300.**الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، ج2، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط2، 1409 هـ/1989م،ص 1129_1130.علي بن محمد الجرجاني، **معجم التعريفات**، تح محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر، دس، ص 151.

[3] _ القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 229.

القارئ قد نهاه أبوه ولم يمتثل لأمره، فاستغرب الطلبة من نسب الآية، فأمر الشيخ تلميذه بأن ينتهي عما أمره به والده، فأدرك تلامذته أنها من كرامات الشيخ ومكاشفته عليهم[2].

كما تعلقت المكاشفة أيضا بمعرفة ما في بواطن الناس من خير أو شر أو أخلاق ذميمة أو حميدة، روى سيدي علي أخ ابن مريم بعض مكاشفات حسن الراشدي أبركان، فقال أن بعض الناس يدخلون عليه بصورة خنزير حتى يظن أنه يكلم خنزيرا ينطق بكلام الإنسان، وبعضهم الآخر يدخلون في صورة يهودي والشكلة[3] في عنقه وهو يعرف أنه مسلم، لعل الولي كشف عن أخلاقهم وما يخفونه عن الناس[4].

أما سعيد البجاوي فكان من كراماته أن يعلم ما سيحصل في المستقبل، ففي يبدر خرج إليه ابن مريم مع أبيه لطلب الدعاء منه، فأخبرهم بأنهم سيرجعون كلهم إلى تلمسان إلا سعيد ويعني به محمد السلطان[5] لن يرجع، وسيصير طمّارا، وبالفعل فقد حفر الناس مطمرا أمام قبره واتخذوا فيه دوائر للنحل. وجرى أن المغطسين[6] جاؤوا بحميرهم يملؤون الشوامي بالزرع فخرج النحل وقتل جميع الحمير إلا حمير المسلمين، ببركة الشيخ[7].

---

[1] _ القرآن الكريم، سورة الاسراء، الآية 23.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 92.

[3] _**الشِكلة:** هي كل ما يميز اليهود عن المسلمين وقد وضعت لليهود القادمين من الاندلس، أمر بها الخليفة المنصور سنة 95هـ/1198م وجعل قمصهم طول ذراع في عرض ذراع وجعل لهم برانس وقلانس زرقا. ينظر: الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح محمود ماضور، المكتبة العتيقة، ط2، تونس، 1966،ص 16.

[4] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص182.

[5] _**محمد السلطان:** هو أبوعبد الله محمد بن أبي حمو(949هـ/1542م) نصب له العرب كمينا في إحدى أبواب تلمسان بعد أن تعاون مع الإسبان للاستيلاء عليها. ينظر: عبد العزيز فيلالي، **المرجع السابق**، ج1، موفم للنشر، الجزائر، 2002، ص 78.

[6] _**المغطسين:** هم جواسيس عرب استعملهم الإسبان عند غزوهم لوهران. ينظر: الاغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في اخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، ج1، تح يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، لبنان، دس، ص 212.

[7] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 182.

وقد أورد ابن مريم أيضا العديد من مكاشفات والده محمد الشريف المليتي، عندما كان مع أصحابه في المسجد فجاء في خاطره أن كتاب محمد الشريف قليل العمار، فتبسم والد ابن مريم وأخبره أن المكتب سيعمر وأن الذي سيعمره هو ابنه وبالفعل فقد تولى ابن مريم التدريس في كتاب والده وامتلئ بالتلاميذ[1].

ومن كراماته أيضا مكاشفة السارقين، فقد جاء في أكثر من موضع في البستان أن أبا عبد الله الشريف كاشف السارق، فالموضع الأول عندما غسلت ابنته عائشة حوائجها ونشرتها في وسط البيت، فدخل رجل إلى البيت وأخذ رداءها وأخذه إلى درب اليهود عند يهودية وهو مبلول، فقال لها أبوها بأنه سيرجع لها إذا، وفعلا فقد لقي أخوها أحد الصبية اليهود الذي كان معروفا بالسرق من الحوانيت فأجبره على أن يخبره بمكان الرداء فأخبره بأنه عند تلك اليهودية[2].

وفي الموضع الثاني عندما سرقت تلاليس الخيل من اصطبل بيته من طرف رجل لا يسكن في دربهم فعرفه أهل الدرب أنه سارق، وعندما خرج ابنه ليبحث عنها، أخبره بأنه سيجدها أمامه، فعندما سال أهل دربه الذين رأوا الرجل البراني الذي أخذ التلاليس أخبروه بمكانه فوجها عنده.

وفي موضع اخر، سرق لهم سرج الفرس، عندما أخبره ابنه بذلك قال له ستجده إن شاء الله، فبقي يومين أو ثلاثة ووجده عند جاره في منشار الجلد يبيعه، ومثله عنما سرق لجام أحصنتهم [3].

أما محمد المسعودي الفجيجي، فقد جاءه زوار من بلاد المغرب في عام مسغبة[1] وجوع ولم يجدوا عنده طعام، فأخبرته زوجته أنه ما عندهم ما يطعمون الضيوف وهم ركب

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 457.

[2] _ نفسه، ص 458.

[3] _ نفسه، ص 459.

عظيم، فأجابها بان رزقهم يأتيهم، وبينما هو يصلي في الكتاب فإذا برجل أتاهم بتليس قمح وقصعة سمن ومعزة فتحققت مكاشفة الشيخ وأطعم ضيوفه[2].

1_5 كرامة الهداية: لقد كانت كرامة الأولياء سببا إلى هداية العديد إلى جادة الصواب وطريق الحق، ومن أمثلة هؤلاء أحمد بن الحسن الغماري، فقد جاء في البستان أنه دخل إلى المسجد الكبير في تلمسان وبات فيه هو وبعض من أصحابه، فلما جاء الشيخ يتهجد في مقصورته أراد الدخول عليه فبقيت رجله معلقة في الهواء حتى ابتعد عن المقصورة، فهرب من الجامع وتاب من ساعته[3].

لم تغفل المصادر وخاصة المَناقبية منها كرامات الأولياء، ومنها ذكره الإمام الحفناوي في كتابه تعريف الخلف بمآثر السلف أن الشيخ علي المهاجري كان يشتغل زمارا في الأعراس، وهي صنعة حرام وأراد أن يتوب منها، فاخبره الشيخ بأن يمرغ نفسه في موضع كان لديوان الأولياء قبل ذلك، فأصابه حب الله تعالى وابتعاد عن صنعته، واشتغل بالصلاة والاعتكاف في المسجد حتى طلوع الفجر فابتعد عن المزمار، وتاب عنه[4].

أما مؤلف طلوع سعد السعود للأغا بن عودة المزاري، جاء أن امرأة أسر ابنها وأخذوه إلى العدوة النصرانية، فجاءت إلى الشيخ محمد بن عمر الهواري تريد منه أن يرجع ابنها، فطلب منها أن تحضر له قصعة من ثريد ولحم لسلوقية عنده كانت ترضع أبناءها، فأحضرت له المرأة ما طلبه منها، فلما أتمت السلوقية أكلها أمرها الشيخ بأن تذهب إلى موضع في عدوة النصارى وتأتي بابن المرأة، فذهبت فوجدته قد اشترى شيئا لامرأة نصرانية كان عندها فأخذته منه السلوقية فصار ابن المرأة يتبعها إلى أن قطعت له ساقية من البحر

---

[1] _ مسغبة: سغب يسغب مسغبة أي جاع، والمسغبة الجوع، ويقال في يوم ذي مسغبة أي مجاعة. ينظر: ابن منظور، **المصدر السابق**، ج1، ص468.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 481.

[3] _ نفسه، ص 106.

[4] _ الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف** ، تقديم محمد رؤوف القاسمي، ج1، د ط، د ت ن .، ص 306.

ودخلت به على أمه في وهران، وذلك من كرامات محمد بن عمر الهواري في رد الغائب إلى أهله[1].

2_الخرقة الصوفية: يمثل اللباس في كثير من الأحيان جوهر ذهنية الشخص فهو يحمل دلالات لانتمائه الفكري أو الديني تميزه عن غيره ، والخرقة الصوفية[2] تعبير عن انتماء المريد للشيخ، فهي بمثابة الرابط بينهما.

في الحقيقة لم يتطرق الكتاب، عن مريدين ارتدوا الخرقة من شيوخهم إلا في موضعين، فإبراهيم بن علي الخياط لبس الخرقة مرتين، مرة عند ذهابه إلى الحج من شرف الدين المراغي[3]، ومرة أخرى من الشيخ صالح بن محمد الزواوي بسنده إلى سيدي أبي مدين، أما سعيد المقري فقد أخذ لباس الخرقة الصوفية عن سيدي حاجي الوهراني . ولم يذكرها في تراجم أولياء اخرين، رغم أن الخرقة من لوازم التصوف.

يرى ابن خلدون أن ربط الخرقة بالإمام من مظاهر تأثر الصوف بالتشيع، أما الصوفية فيرون أن في لبسها مبايعة، وأنها تمثل عتبة دخول المريد في صحبة الشيخ الذي يتولى تربيته وتهذيب أخلاقه وتقويم سلوكه[4] .

للخرقة طقوس يشترك في أدائها كل من الشيخ والمريد، فللشيخ القسط الأكبر من المراسم، فهو يتوضأ ويتطهر ويأمر المريد بذلك، ثم توضع الخرقة بين أيديهما، ويقرأ الشيخ

---

[1] _ الاغا بن عودة المزاري، **المصدر السابق**، ص 70.

[2] _**الخرقة الصوفية:** الخرقة لغة هي القطعة من الثوب الممزق، وخرق الشيء مزقه وشقه، أما اصطلاحا فهي ما يلبسه المريد من شيخه الذي دخل في إرادته أو سار على طريقه، وهي تمثل عتبة دخول المريد في صحبة الشيخ. ينظر: **المعجم الوسيط**، ص 208.

[3] _ هو محمد بن أبي بكر بن الحسين بن عمر بن محمد بن يونس بن أبي الفخر بن عبد الرحمن بن نجم بن طولون العبشمي العثماني المراغي، العلامة الصالح قاضي المدينة الشريفة، ولد أواخر سنة 775هـ، تفقه على ابيه، والسراج البلقيني والكمال الديري وسمع اباه، غلب عليه الانقطاع عن الناس والتخلي والعزلة. ينظر: السيوطي، **نظم العقيان في اعيان الاعيان**، تح فيليب حتي، المكتبة العلمية، لبنان،1927، ص 139 .

[4] _ عبد الرحمن ابن خلدون، **المصدر السابق**، ص 454.

الفاتحة، ثم يقوم بإلباسها للمريد، مبينا له سند وصولها إليه، والسند في الخرقة متصل بالشيوخ، وكلما ارتفع المقام الشيخ ارتفع مقام لابسها فهي بمثابة الإجازة العلمية، وتلزم من يلبسها بالاجتهاد في التقوى والطاعات، واجتناب المخالفات، والبحث عما فيه رضا الله[1] .

فبعض الشيوخ يشبهون الخرقة بقميص يوسف عليه السلام الذي ألقي على النبي يعقوب عليه السلام فصار بصيرا، والمعنى من هذا أن الخرقة تضيء بصيرة المريد.

المطلب الثاني: تقديس شيوخ الطّرق

أقبل المجتمع على التصوف، وحظي شيوخ الطّرق بكثير من المريدين بحسب شهرتهم والقبول الذي كُتب لهم، وكان لكل شيخ طريقة طقوس وأوراد، وهي على نوعين، ذكر جماعي للعوام القصد منه التعلم وذكر فردي محدد زمنا ومتنا وليلا ونهارا[2] الهدف منه تعليم المريد الضبط والنظام والالتزام بعهد شيخه، والأوراد بدورها أنواع، وظائف وأحزاب وأدعية، فقد كان لكل طريقة ورد خاص بها بعضها أذكار مقتبسة من الكتاب والسنة وبعضها الآخر رموز تحصلوا عليها شيوخ الطرق من خلال ما يسمونه بكتب الباطن أو كتب الكشف والفناء، بل وصارت بعض الأوراد مختصة بالشيخ نفسه وليس بالطريقة.

أعطانا ابن مريم في بستانه نماذج عن مريدين واضبوا على أورادهم والتزموا بها، فأحمد ابن الحاج اليبدري جعل كتاب التنوير في إسقاط التدبير وردا وحفظه كالفاتحة[3]، أما علي التالوتي فقد جعل الرسالة وابن الحاجب والتسهيل لابن مالك وغيرها وردا كل يوم[4]، ومثله

---

[1] _ عبد العالي غزالي، **المجتمع التلمساني الزياني، دراسة للعادات والتقاليد والأعراف من القرن 7هـ/13هـ حتى القرن 10هـ/16م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2021/2020، ص146.

[2] _الطاهر بونابي، **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين14_15م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008_2008، ص 572.

[3] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 71.

[4] _ نفسه، ص 272.

كان محمد ابن رحم المطغري حافظا لحكم ابن عطاء الله ومحمد الأدغم السويدي، أخذها عن سيدي علي بن يحي وجعلها وردا[1].

كما ذكرا أولياء آخرين بأنهم كانوا مواظبين على أورادهم محافظين عليها، حتى صار يقال له صاحب وظائف وأذكار، وهؤلاء الأولياء هم أحمد بن موسى الادريسي، الحسن الراشدي أبركان، محمد حمو الشريف، محمد البطوئي، ابن الغليظ المديوني، ومحمد الزكوطي[2].

يعود ظهور الأوراد في المغرب الأوسط إلى القرن 6هـ/12م بالتحديد في بجاية، مع أبي مدين شعيب الذي جعلة لمريديه في رابطة ابن الزيات أورادا خاصة بهم، متأثرا بعبد القادر الكيلاني (ت 561/1166م) أول من سن الأذكار[3]، كما مارس الأذكار أيضا بعض الصوفية الأندلسيون كأبي الحسن الحرالي (ت638هـ/1282م) وأبي بكر ابن مرزوق(ت681هـ/1282م)[4] .

اقتصرت الأوراد في بداية ظهورها في المغرب الأوسط كما سبق على نخبة المتصوفة فقط، لكن في القرن 8هـ انتشرت الأوراد بانتشار الطرق الصوفية، بل وصار لكل طريقة أورادها الخاصة بها.

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 482.

[2] _نفسه، ص 484.

[3] _ عن الطاهر بونابي، مؤلف مجهول، **النتيجة في تلخيص الكرامات في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني**، مخطوط ضمن مجموع، دار الكتب التونسية، رقم 926، ورقة 93.

[4] _ الطاهر بونابي، **المرجع السابق**، ص 573.

من أمثلة المتصوفة الذين برزت أورادهم في هذه الفترة أبا العباس أحمد ابن مرزوق وأبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي(ت 748هـ/1347م) اللذان كانا يجتمعان بتلامذتهما وأصحابهما من أهل الإرادة كل ليلة من أجل الذكر[1].

أما في القرن 9 هـ/15م، سرد لنا أحمد مرزوق زيادة الاهتمام بالأوراد في عصره، ومنهم ابن مرزوق الحفيد الذي كان لأوراده أوقات معلومة.

- **تقديس شيوخ الطرق والاعتقاد فيهم:**

كان من مظاهر هذا العصر الإقبال على شيوخ الطرق الصوفية على حساب الفقهاء، وعلى حساب تعلم العلوم الشرعية والدينية، فكثر المريدون وذلك لاعتقادهم أن التصوف علم الباطن، وفي كتاب البستان لابن مريم ما يؤرخ لهذه الذهنيات، ويؤكد رسوخها.

نجد أن أحمد بن الحاج اليبدري تخرج عليه جماعة كبيرة، كسيدي الحاج بن سعيد وولد أخته وابن عمه، وتخرج عنه سيدي محمد بن بلال المديوني، أخذ عنه القراءات السبع والعربية والتصوف، واخذ عنه سيدي عبد الرحمن اليعقوبي التصوف، وفتح الله على ابن مريم بعد أن أجازه قراءة كتاب التنوير في إسقاط التدبير، فقرأ الحكم وحفظهم كالفاتحة وفتح له في ابن عباد وكتب ابن عطاء الله، وكتب الشيخ أحمد زروق[2].

وكان بعض الشيوخ لطفاء مع تلامذتهم كما كان اليبدري مع تلميذه ابن مريم، فكان كلما يأتي لزيارته يقبل يده ويجالسه، ثم يلتفت خلفه ويعطيه الخبز والتمر والتين والعنب ويستحي أن يأكل، ومثله إبراهيم بن يخلف التنسي الذي درّس بتلمسان وانتفع به خلق كثير لا يحصون وجاؤوه من المشرق والمغرب[3] .

---

[1] _ القلصادي، **رحلة القلصادي**، تح محمد أبو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1979، ص 97.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص71

[3] _ نفسه، ص 159.

أصبحوا يلقبون بألقاب كثيرة من تلامذتهم، وكانوا يذكرون فضلهم وأعمالهم، وهنا نذكر أن ابن مرزوق الحفيد قال عنه تلميذه أبو الفرج بن أبيب يحي الشريف التلمساني: "هو شيخنا الإمام العلم العالم ملازم للكتاب والسنة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع في زمن البدع في زمن من لا عاصم فيه لأمر الله إلا من رحم الله"[1].

وكان بعض المشايخ والأولياء من رفع شأن طلبته وإعطاهم الفرصة في إثبات ما تعلموا، وبهذا أصبحوا ممن انتفع بهم وأخذ عنهم، فقد ورد في ترجمة محمد بن أحمد الإدريسي أنه دخل عليه الرجل الشهير بالمهتدي، وكان طالبا فصيحا، قدم من سفر، فأعطاه كسوة ونفقة وافرة، ودخل عليه مرة بفاس، فساله عن حاله، فذكر انه ابتدأ قراءة القرآن بالقرويين وأنه لم يعط شيئا لعدم معرفتهم بحاله، ولا يستطيع هناك الطلبة، فتأسف الشيخ لحاله، وفي الغد بعث أربعة من طلبته بأربعة قراطيس دراهم وقال لهم: "احضروا مجلسه، فإذا قرا فارموا القراطيس بين يديه" ففعلوا فأخذها المهتدي ودعا لهم، وعرف الناس منه الأخذ فانهالت عليه قراطيس العطايا، واتسع حاله، وكان الطلبة في أيامه أعز الناس، وأكثرهم عددا وتخرج عليه من التلامذة من لا يحصى من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ونجباء الأولياء[2] .

لم يقتصر تعليمه على طلبته ومجالسهم فقط، وإنما كانوا أينما ذهبوا نفعوا وعلموا، فقد أشار صاحب البستان إلى أحمد بن صالح بن إبراهيم عندما ثقفه السلطان أو يعقوب المريني كان في السجن أزيد من سبعمائة رجل فأخذهم بالقراءة كلهم حتى حفظوا كتاب الله، وكان الناس يقصدونه لتجويد القران[3]، بالإضافة إلى علي القلصادي الذي قرأ عليه الجم الغفير من الناس[4] .

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 369.

[2] _نفسه، ص 317..

[3] _ نفسه، ص 100.

[4] _نفسه، ص 275.

يذكر بعض المريدين على مشايخهم أنهم يختلفون في طرق تلقينهم وتدريسهم، فورد أن ابن توزنيت التلمساني، قال عنه تلميذه السنوسي: "وما رأيته قط نظر في كتاب إلا مرة واحدة أشكلت عليه مسالة هندسية، فنظر فيها كتبا كثيرا أياما فلم يجد لها حلا، قال هكذا أتعب نفسي بالمطالعة، فتركها وتدبر المسألة بعقله حتى أتقنها"، ويضيف أنه كان حسن الأخلاق سليم الصدر، يقول لكل من جاءه للقراءة، اقرأ في أي علم شئت، وليس له طعام مخصوص، وإنما يأكل من طعام مخلوط بطعام يعطى للسعاة من الديار، ولازمته كثيرا وكنت اقرأ عليه جل الليل، ولم أره يرقد إلا في بعض الليالي، ينام وهو مستند[1].

ويذكر البستان أن هناك من المشايخ من ترك أثره للعامة والخاصة أي المريدون، فمنهم من ترك الوصية، ومن ترك سيلا للناس ينتفعون به، وآخرون أصبحوا يرون في المنام ويفسروها الناس عن منفعة، أمثال محمد السنوسي الذي يقول: حدثني أهل مالقة، قال لي:" مات لي قريب وكان صالحا، فرأيته في النوم، فسألته عن حاله، فقال دخلت الجنة فرأيت فيها سيدي إبراهيم الخليل يقرئ صبيانا عقيدة السنوسي، يدرسونها في الألواح ويجهرون بقراءتها"[2]، بينما محمد مسعود الفجيجي بنى مسجدا على عين وبيتا للقراء المريدين ينفق عليهم ويمونهم[3] .

أما العامة فكانوا أيضا على درجة كبيرة من الاعتقاد في التصوف وشيوخ الطرق، حتى أن السراق وأصحاب المعاصي كان يعظمون هؤلاء الشيوخ ويخافون أن يستجاب دعاؤهم فيهم، وكذا التقرب منهم، فقد ذكر ابن مريم التلمساني في ترجمة أحمد موسى الإدريسي أن السراق دخلوا روضة يسرقونه فوجدوا السفرجل فرفعوا منه الشوامي على ظهورهم، وأرادوا الخروج فلم يجدوا طريقا، وتكرر منهم ذلك الفعل حتى أصبح الله بخير الصباح، وأتوا الشيخ

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 412.

[2] _ نفسه، ص424.

[3] _ نفسه، ص 480.

فتابوا على يديه لأجل ما رأوا[1]، ومثله أحمد الغماري دخل بعض الناس في بعض الليالي الجامع الكبير، قال: "وبتنا فيه، فلما جاء الشيخ سيدي أحمد للمقصورة يتهجد فيها، ذهبت فأردت أن أدخل عليه في المقصورة، فلما قدمت رجلي للدخول بقيت معلقة في الهواء لا أستطيع أن أضعها بالأرض ساعة، فصرت أحاول الرجوع إلى ورائي حتى بعدت عن المقصورة، فتبت وهربت من تلك الناحية[2] .

كما صار اغلب الناس يعظمون الأولياء بعد موتهم وجعلوهم رمزا للتبرك وواسطة للوصول إلى مبتغاهم، فورد في ترجمة أحمد ابن مرزوق الذي كان قبره مشهور بالمرج، ومثله إبراهيم الغوث الذي قبره مزار بالعباد، وكذلك معروف بإجابة الدعاء عند قبره[3] .

كان العامة يضربون الأمثال بالأولياء وجعلوهم قدوتهم الأولى، فنجد إبراهيم التازي الذي يضرب به المثل بعقله وحلمه، واشتهر في الآفاق ذكر فضله وعلمه حتى الآن، إذ إذا بالغ أحد في وصف رجل قال: "كأنه سيدي إبراهيم التازي"، واذا امتلأ أحدهم غيظا قال: " لوكنت في منزلة إبراهيم التازي ما صبرت بهذا"، لما كان سيتحمله من إذاية الخلق، وله قبول في قلوب العامة والخاصة[4].

كان العامة يزورون الأولياء تبركا بهم ولقضاء حوائجهم، فقد ورد أن أبا القاسم زواوي، كان يزوره ذوو العاهات يبرؤون، ولا قصده ذو حاجة إلا قضيت له[5]، ومثله أبو جمعة المطغري الذي تحدث به الناس، وشاع خبره في البلاد وصار الناس يستشفعون به إلى السلطان في قضاء حوائجهم[6]، ومنهم من كان يعتقد فيهم اعتقادات غريبة، ويقومون

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص93.

[2] _ نفسه، ص 106.

[3] _ نفسه، ص 95.

[4] _ نفسه، ص146.

[5] _ نفسه، ص 167.

[6] _ نفسه، ص 168.

بتصديقها، فنجد أن حرمة بني ورنيد الموضع الذي كلمت فيه الفرس حمزة المغراوي يزار إلى الآن ويرفع الناس التراب منه، ما علقه مريض عليه إلا شفاه الله، أما عبد الرحمن المجاصي أتى لترارة يصلح بينهم، وقال رجل منهم لا نصطلح، فقال له الشيخ : "الله يعطيك الكي"، فمرض ذلك الرجل من ساعته، وصار يصيح : جنبي، بطني، ظهري، ويكوى حتى مات[1].

ومن المشايخ من كان يدّعي أنه قد ذكر في القران، ليعتقد الناس أنه من خيار الناس لله، ففي ترجمة أبي مدين الاشبيلي نجد أن التادلي ذكره، وغيره أن رجلا جاء ليتعرض عليه فجلس في الحلقة، فأخذ صاحب الدولة في القراءة، فقال له أبو مدين:" أمهل قليلا"، ثم التفت للرجل وقال له :"لم جئت؟" فقال:" لأقتبس من نورك"، فقال له ما الذي في جيبك؟ فقال له مصحف، فقال له افتحه وأقرا في أول سطر يخرج لك، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه : "الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين"[2] فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله[3] .

وكذا منهم من كان يرى في المنام رفقة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا دلالة وشدة تأثير هؤلاء المشايخ على العامة، فقد ذكر ابن مريم التلمساني، عن عبد الله المجاصي، روى أن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن الغريب، ممن جاوروا بالمدينة سنين رأى مولانا محمد صلى الله عليه وسلم في المنام قال له: " أبلغ عبد الله المجاصي مني السلام وقل له إنا لنسمع قراءتك القران من قبرنا ."[4]

وبرز أنه من يتعدى حدوده مع المشايخ والأولياء بفعل أو قول إنما يلقى حتفه أو يكون من المصابين، ففي البستان نجد ترجمة محمد بن عمر الهواري الذي كان يثني على

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 201.

[2] _ القرآن الكريم، سورة الأعراف ، الآية 92.

[3] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 230.

[4] _ نفسه، ص 246.

أهل بجاية كثيرا لمحبتهم الغرباء والفقراء ومعاملتهم الحلال، فقد كان الشيخ عثمان بن موسى المسعودي العامري طاغيا لا يبالي بأخذ الأموال وذبح الرجال من غير سبب، أخذ مالا كثيرا للبعض ممن ينتمون للشيخ سيدي الهواري، فبعث له سيدي الهواري يأمره برد ما أخذ الإنسان الذي ينتمي إليه فزاد عتوا وأخذ خديم الشيخ الذي ساق إليه الكتاب وكبله... فغضب الشيخ غضبا شديدا ودخل خلوته ساعة، وصار يقول: مفرطح مفرطح، فهلك السارق، واشتهر عند الحاضر من الرجال والنساء أنهم رأوا شيخا أبيض أخذ من فرسه وضرب به الأرض، فوجدوا رأسه داخلا في جوفه[1] .ومثله نجد محمد الأدغم السويدي أن بعض الأعراب جاء وله زرع فوجد فيه عجولا صغار من دوار الأدغم فقتل جميعهم، فبلغ خبرهم للأدغم، فبقي طول يومه لم يخرج من بيته، ولم يكلم أحدا، ثم أن الاعرابي صار ينتفخ ويصيح ارفعوني إلى الأدغم حتى خرجت روحه، وأن بعض الأعراب جاء لمطمورة الشيخ بزرعه يخزنه، فوجد مطمورة لولد الأدغم أراد أن يخزن فيها زرعه، فقال للطمار عليه الحرام لا أخزن فيها إلا أنا، فخزن وذهب، والترك هناك نازلون لمحلتهم وذهب وهم يأخذون العلف من الدوار، وتشاجروا مع أهل الدوار، وقام العرب يتقاتلون مع الترك فاخذ ذلك العرب الذي قال : الحرام لا خزنت فيها إلا انا، انظر ما يفعل لي إن أخذ ضربة برصاصة، فمات من ساعته[2].

اعتمد مجتمع المغرب الأوسط اعتمادا كليا على الصوفية في مواجهة الأزمات التي لحقت به كالمجاعات والكوارث الطبيعية والتفسخ الأخلاقي وغيرها، هنا تأكد العامة أن خلاصهم الوحيد من هذه المعضلات في الصوفية ومساعدتهم، فصارت تهرع إليهم في كل النوائب.

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 406.

[2] _ نفسه، ص 483.

أصبح الاعتقاد في الأولياء والتبرك بهم لدى العامة، سلوكا اجتماعيا تؤمن به كل الشرائح على تفاوتها الطبقي، فقد كان الأغنياء يمتثلون للمبادرات الاجتماعية التي يتزعمها الصوفية لإنقاذ المعوزين، لأنهم يعتقدون بحصول البركة منهم، ونفس الشأن بالنسبة للطبقة المتوسطة من التجار والحرفيين إذ كانت تخدمهم وتخصهم بالاحترام والتبجيل.

أما الطبقة الدنيا وهي أكبر شرائح المجتمع، فكانت ترى اعتقادها في الصوفية والتبرك بها مخرجا من أزمتها الاجتماعية والاقتصادية، فقد كان أهل تلمسان يستوقفون عبد السلام التونسي(ت 512هـ/1118م) عند باب المسجد عقب كل صلاة و يمرون أمامه الواحد تلو الآخر ليدعو لهم[1].

لم تكن فكرة التبرك بالأولياء مقتصرة على الأحياء فقط، بل على الأموات فقد برزت ظاهرة التسول عند القبور وأضرحة الصوفية أملا في تحقيق المآرب وتفريغ الكروب، مثلما كان يحدث عند ضريح أبي زكريا يحي الزواوي الذي كان أبناؤه يهرعون إلى قبره كلما حل بهم مكروه أو اعترضتهم مشكلة[2] .

إضافة إلى ما كان يعتقده العامة من الناس أن الدفن بالقرب من صوفي حصل له الغفران من الله وبركته، لذلك كانت قبور العامة تتزاحم بالقرب من قبور الصوفية، كما كان التلمسانيون يدفنون موتاهم قرب قبر أبي مدين شعيب، والملاحظ أن حتى الفئات التي تمثل واجهة الفكر والثقافة ما في ذلك الفقهاء كانوا يتبركون عند قبور الصوفية، ويدافعون عن كراماتهم ويعتقدون فيها أبرزهم أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي كان يجلس بقرب أبي علي الحسن المسيلي تبركا به.

[1] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 247.

[2] _نفسه، ص 212.

تكشف مواكب الجنائز الصوفية التأييد الشعبي الذي كان يحظى به الصوفية آنذاك، فأهل تلمسان خرجوا في مشهد عظيم لتشييع جنازة أبي مدين شعيب بالعباد، وكانت هذه الجنائز بمثابة فرصة يستظهر فيها الصوفية وزنهم الاجتماعي الذي عبر عنه الصوفي أبو علي عمر الحباك في معرض وصفه لجنازة أبي مدين بقوله:" ما رأيت أعز من الفقراء ولا أذل من الأغنياء"[1] وقد هيأ العامة أذهانهم على مبدأ احترام الصوفية واعتبارهم هم السادة الحقيقيون والأمراء.

كما أقنع الصوفية العامة بأن ما يقع لها من مكروه مرده إلى عدم خدمتهم للصوفية، كان يحي النروادي يقول في حق الصوفي أبي نجم الغبريني " من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هلال بن يونس " فكانت مثل الدعاية الروحية التي ألهبت حماس العامة في المثابرة إلى خدمة الصوفية.

المطلب الثالث: الجنوح إلى التقليد

شاع التقليد في هذه الفترة في المغرب الأوسط، وذلك من شدة ولع العامة والمريدين بشيوخ التصوف ومظاهره وغلبة التقليد، وهذا ما هو إلا مرآة عاكسة لما كان سائدا آنذاك من ذهنيات حول شيوخ الصوفية.

أدرج ابن مريم في بستانه عما كانوا من المقلدين كما ذكر كذلك الكثير من المجتهدين في مختلف العلوم. في ترجمة إبراهيم المصمودي التلمساني، فقد عرض له شيء منعه من اتباع المشهور في المسالة واضطر إلى فعله، فبحث حتى وجد جواز فعله عند ابن حبيب واصبغ، ثم مضى في طريقه عند امه، فسقط حجر عليه فآلمه، فظن أنه عقاب لأنه خالف المشهور في المسالة وقلد غيره، لكن الشيخ أخبره أن من قلد ابن حبيب واصبغ لا ذنوب

[1] _ ابن قنفذ القسنطيني، **المصدر السابق**، ص 104.

عليه[1]. أما ابني الامام زيد وموسى فقد خرجا عن التقليد واتجهوا نحو الاجتهاد، خاصة لما صار لهما صيت في المشرق[2].

نجد مما سبق أن بعض المتصوفة اتجهوا نحو التقليد، خوفا مما سيلحقهم إذا خالفوا شيوخهم، وبعضهم الآخر اتجه نحو الاجتهاد لسعة علمه وتفقهه.

لم يقتصر التقليد والتجديد والاجتهاد[3] في التصوف فقط، بل شاع أيضا التقليد في العلوم خاصة الدينية واللسانية بل وحتى العلوم الأخرى كالطب والمنطق، وهذا ما يجسده انتشار المختصرات.

ففي العلوم الدينية، جنح كثير من علماء المغرب الأوسط نحو الاختصارات مثل مدونة ابن سحنون ومختصر خليل، أما في علوم اللغة اهتموا بشرح العديد من الكتب وتدريسها مثل الآجرومية وشرح البردة والمنفرجة، أما في العلوم الأخرى في الحساب مثلا، اهتموا بتلخيص كتاب أعمل الحساب لابن البنا المراكشي (ت 721هـ/1321م) أما في علوم الفلك نجد أرجوزة بغية الطلاب في علم الإسطرلاب لمحمد بن أحمد التلمساني الذي قام القلصادي بشرحها، أما في الطب نجد رجز ابن سينا[4].

وحتى المجددين منهم لم يضيفوا الجديد إلى العلوم، فقد كان مسارهم العلمي أشبه إلى التقليد باعتمادهم على الشروح والمختصرات أيضا، وقد فسرت هذه الضرورة بانها ضرورة حتمية في تلك الفترة من التاريخ، وذلك لتغير المرجعيات الفكرية، بل ردوها أيضا إلى تغير

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 155

[2] _نفسه، ص 250.

[3] _الاجتهاد: في اللغة بذل الوسع، وفي الاصطلاح استفراغ الفقيه الوسع ليحصل له ظن بحكم شرعي، وهو كذلك بذل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال. ينظر: الجرجاني: **المرجع السابق**، ص 12.

[4] _ طاهر بونابي، **المرجع السابق**، ص ص 119_ 120.

اللسان العربي في المغرب الأوسط واختلاطها بلهجات ولغات أخرى، مما جعل الكتب وخاصة الفقهية منها صعبة الفهم، وهذا ما جعلهم يحدثونها، على نحو سهل الفهم[1].

أدى ضعف الاهتمام بالعلم في هذه الفترة، إلى الاكتفاء باليسير منه فقط ورد تفسير مختلف الظواهر إلى أسباب خارقة وقوى غيبية بعيدة عن التفسير العلمي، إضافة إلى بروز من يدعون المعرفة بالعلوم، مما أدى إلى فساد في مختلف المجالات خاصة وانهم تبوؤا مناصب حساسة كالإفتاء والطب والتعليم[2].

المطلب الرابع: الإجازات

تعتبر الإجازة العلمية بمثابة الشهادة التي تمنح للطالب عند إنهائه لمرحلة تعليمية في وقتنا الحالي، وهي تثبت تمكنّه من العلوم التي اخذها عن اساتذته.

أما الإجازة عند الصوفية فهي تحمل دلالات أخرى، فالمقصود بها التفويض من قبل المرشد لبعض تلامذته بتلقين جميع الأوراد أو بعضها مشافهة أو كتابة، أو قلبا تفويضا مطلقا في جميع الأوقات أو بعض منها، أي أن الإجازة في بعض الأوقات تكون محددة بزمن، كما أنها تكون غير محددة بزمن بل دائمة.

والإجازة عند المحدثين هي الإذن في الرواية لفظا وكتابة، وكانت في الأصل لا تسلم إلا لمن يدرس علم الحديث ثم عمم استعمالها، فصارت تمنح في كل علم حتى في التصوف، وفي كل العلوم التي يتقنها المجيز، وان كان طالب الإجازة غير كفء لها، فلا يستحي

[1] _ ابن مريم التلمساني، **نفسه**، ص 122.

[2] _ سعيد بن حمادة، **جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية بالغرب الإسلامي من خلال كتاب تحفة الناظر للقاضي العقباني التلمساني**، "مجلة عصور الجديدة"، العدد5،2012، ص 75.

المجيز برفضها مع تبيين مواطن النقص فيه، وحثه على العمل على إثرائها حتى يكون أهلا للإجازة.[1]

يذكر ابن مريم في بستانه أن أحمد ابن الحاج اليبدري ابن عبد الله الميناوي قد أرسل في طلب الإجازة لشيخه ابن زكري وطلب منه أن يستعجل له في ذلك خيفة أن يموت[2].

أما إبراهيم الوشقي فقد قرأ بمالقة على أبي بكر دسمان وأبي صالح بن الزاهد وأبي عبيد الله بن حفيد، وأبو سهل بن مالك فأجازوا له وأجاز لهم[3]. أما ابن مرزوق الحفيد فقد أجازه الحافظ بن حجر العسقلاني مكاتبة من مصر[4].

اكتست الإجازة أهمية كبيرة لدى طلبة مختلف العلوم، وخاصة علوم الحديث، لذلك اقتضت الضرورة بالكثير منهم إلى الترحال، طلبا للاستزادة من العلوم، وطمعا في الحصول على الإجازة من كبار العلماء المشهود لهم بالتفوق في العلوم[5]، فهي في نظرهم أرقى درجات العلم التي يحصلون عليها.

كانت الرحلة إلى المشرق من أهم الرحلات العلمية، ففي الحواضر المشرقية كالمدينة المنورة والقاهرة برز العلماء والفقهاء، من أجل الإجازة العلمية خاصة في علم الحديث، ومن أمثلة من رحل من المغرب الأوسط إلى المشرق ابن مرزوق الذي التقى بالعالم ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)[6] وأجازه، وعبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ) الذي زار العديد من

---

[1] _ محمد بن رمضان **شاوش**، **المرجع السابق**، ص 405.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 83.

[3] _نفسه، ص 139.

[4] _ نفسه، ص 432.

[5] _ القلصادي، **المصدر السابق**، ص 66.

[6] _ **ابن حجر العسقلاني**: المحدث الثقة الرحال، أبو الطيب، علي بن محمد بن أبي سليمان أيوب بن حجر، الرقي ثم الصوري، سمع اباه، ومؤمل بن اهاب، ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم .ينظر: شمس الدين الذهبي، **سير اعلام النبلاء**، تح إبراهيم الزيبق، ج15، د ط، مؤسسة الرسالة، سوريا، 1983، ص 294_295.

مدن المشرق، من أجل الإجازة في علم الحديث، وهو بدوره عندما مر بتونس في رحلته أجاز بعض الطلبة[1].

[1] _ عبد الرحمن قيسوم، **عبد الرحمن الثعالبي والتصوف**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص 38.

المبحث الثالث:

الذهنيات والحياة الاجتماعية

* الذهنيات والأسرة
* مبدأ التربية وطرائق التعليم
* العادات والتقاليد

عرف مجتمع المغرب الأوسط في أواخر القرن 16م_10هـ وبداية القرن17م_11هـ، تنوعا في العادات والتقاليد المتعلقة بالأسرة والمناسبات والاحتفالات وغيرها، غير أن غلبة تيار التصوف الذي أثر في الذهنيات أنتج لنا مخيالا اجتماعيا متعلقا بالعادات تميزه الخرافة وربط معظمها بالتصوف.

المطلب الأول: الذهنيات والأسرة

الأسرة هي اللبنة الأولى لبناء المجتمع، ولا شكّ أنّ الإسلام حثّ على حماية الأسرة وسلامتها، وسنحاول أن نبحث عن أبرز الذهنيات المتعلقة بالأسرة والتي وردت من خلال كتاب البستان لابن مريم.

لقد أورد ابن مريم في بستانه العديد من الحالات في عدة تراجم متعلقة بعادات الزواج من خطبة وولائم الزفاف وحالات الطلاق.

ففي ترجمة أحمد ابن مرزوق(ت842هـ/1438م) وردت عدة إشارات لها علاقة بعادات الزواج والخطبة السائدة آنذاك، فقد ذكر أنه خطب له وهو في سن صغيرة سن السابعة على فتاة تسمى خديجة ابنة أبي إسحاق وكانت هي الأخرى صغيرة في السن في الثالثة أو الرابعة، وهذا يدل على أمرين، أولا أنه كان سائدا آنذاك أن يخطب الرجل لابنته إن رأى في ذلك الرجل الخير والصلاح، وثانيا كان معروفا الخطبة في سن صغيرة على أن يتم هذا الزواج بعد أن يكبر المخطوبين . كما جاء في نفس الترجمة أيضا بعضا من مراسيم الزفاف على أن يستمر الاحتفال سبعة أيام، وبعد اليوم السابع من دخول عش الزوجية يطهى الطعام ويوزع على المدعوين.[1]

[1] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 98

وقد ورد في مناقب ابن مرزوق الحفيد نفس ما ذكره ابن مريم، أن يتم العرس في اليوم السابع، أي أن تقام كل مراحل الزواج وما يتخللها من عادات قبل هذا اليوم، وهذا ما ورد عن زواج جده.[1]

كما ورد في نفس الترجمة أيضا عادة كفالة الشاب الذي يريد الزواج، خاصة إذا كان محتاجا ولا طاقة له على تحمل تكاليف الزواج، وكذا مساعدة الفتاة في تجهيز نفسها، فقد أمر السلطان أبي يعقوب يوسف لابنة أبي إسحاق التنسي أربعمائة دينار وثمانين دينارا من الذهب وبفرس كان بعث لعمها بتونس[2]، كما تولى ابن مرزوق الجدّ إعانة تلميذه أبي العباس ابن القطان وتزويجه ودفع إليه بالدراهم، هذا ما ورد في المناقب المرزوقية.[3]

أما بالنسبة لاختيار الشريك فكان الغالب آنذاك أن يتم اختيار الزوجة على أساس الشرف والدين، لذلك نجد العديد منهم يُقبلون على التزوج من بنات الفقهاء والمتصوفة طمعا في اكتساب النسب الشريف أو تباهيا به، أو لمعرفتهم لأخلاق بنات الفقهاء، وكذا تنفيذا لوصية الرسول الكريم "**فاضفر بذات الدين تربت يداك**" [4]، كما كان الاختيار يتم كذلك على أساس أن تكون المرأة المتصوفة فقد كانت زوجة حمزة المغراوي متصوفة من أكابر أولياء الله.[5]

هذا بالنسبة للذهنيات السائدة فيما يخص الزواج، أما فيما يخص الخلافات الزوجية فقد ذكر أن أحد تلامذة أبو مدين شعيب الإشبيلي قد غاضته زوجته في الليل ونوى فراقها فقال

---

[1] _أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، **المناقب المرزوقية**، تح سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2008،ص 197.

[2] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 98

[3] _أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، **نفسه**، ص 199.

[4] _حديث نبوي شريف، **صحيح البخاري**، ص 5090.

[5] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 201.

له الشيخ أن يمسك زوجته ويتقي الله[1]، يدل هذا على أن العامّة كانوا يستشيرون الفقهاء عند وقوع المشاكل الزوجية، كما أنه كان للفقهاء دور في المحافظة على أواصر العلاقة الزوجية. ولقد سادت عادة لجوء الزوجين للصلحاء بعد العرس قاصدين الدعاء لهما ومباركة حياتهما الجديدة.[2]

غير أن هذا لم يكن حال الجميع، فقد كان لبعض النساء بعض العادات تقوم بها حفاظا على أسرتها، ومن هذه العادات تعليق التمائم خوفا من أن يتزوج عليها زوجها، أو تهديئا للخلافات الزوجية بينهما، أو لتثبيت العلاقة عن طريق كتابة حرز للأزواج من طرف المشعوذين إذا أحست المرأة بالإعراض[3] . كما سادت ذهنيات أخرى متعلقة بجوانب أخرى من الحياة، فقد كان شائعا في تلك الفترة خروج الرجال إلى القتال أو التجارة وهم في ذلك يستغرقون وقتا طويلا، فكان في اعتقاد النساء أن كنس البيت يجلب خبر الشؤم بأن يموت الرجل فكانت لا تكنس البيت أسبوعا دفعا للنحس[4].

كما كانت عادة التبرّك بقبور الأولياء والتقرب إليهم ببذل المال وتوزيع الطعام عند الأضرحة والدعاء فيها، خاصة لدى النساء اللائي لم يتزوجنّ أو لم يتمكنّ من الإنجاب، فكانت أضرحة الوليات الصالحات المدفونات بتلمسان كضريح لالة ستي[5] ولالة مغنية[6]

---

[1] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص،231.

[2] _ سهيلة دهمش، **العادات الاحتفالية مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي للمغرب الأوسط الزياني(633_962هـ/1235_1555م)** مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، 2015، ص67.

[3] _ أحمد بن عبد الرحمن البرزلي، **مختصر فتاوى البرزلي**، ج 6، أخرجه أبو الفضل الدمياطي، دار ابن حزم، ط1، لبنان، 2011، ص230.

[4] _ أسماء حاج محمد، **المعتقدات الخرافية في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، مجلة مدارات التاريخية، العدد3، الجزائر، 2021، ص73.

[5] _ اسمها الحقيقي مرنيّة، تأسست زاويتها بداية القرن 17م في تلمسان .

[6] _ هي الولية الصالحة بنت الشيخ عبد القادر الجيلالي تنحدر من ال البيت، قدمت من بغداد واستقرت في تلمسان، عاشت فيها خلال القرنين 6 و7 هـ.

مقصدا للنساء اللواتي تعانين مشاكل رغبة في تغيير واقعهن، وقد وصل بالبعض أن يجلب بعضا من تراب ضريح لالة ستي للمرأة التي توفي زوجها ويوضعه لها في كوب ماء ليذهب الحزن عنها[1].

أما فيما يخص العلاقات بين الوالدين وأبنائهم، فقد كانت الروابط الأسرية متينة، وكان من عادة الأبناء البرّ بوالديهم وطاعتهم إلى حد تعظيمهم، فقد ذكر في سيرة الحسن الراشدي أبركان أنه كان في غاية البر بوالديه ولمن له علاقة بهما سواء نسب أو صحبة، وقد بلغ من تعظيمه لأمه أنه كان من شدة خدمته لها لا يبيت معها في بيت واحد، ويراه من التجاسر وسوء الأدب، وكان يحافظ أشد المحافظة على ما خلفته الأم من بعض لباسها، وبل على الهيدورة التي كانت تجلس عليها تبركا وتعظيما لما عظمه الله سبحانه وتعالى من برور الوالدين[2].

لم تكن العلاقات الأسرية تتلخص فقط في علاقة الآباء بأبنائهم، بل تعدت ذلك الى الأقارب من جهة الأب والأم، حفاظا على صلة الرّحم، وها هو أبو عبد الله الحلوي قد جاء من مدينة مرسية[3] زائرا عمته في تلمسان ولم يسرّه شيئا كوجودها حية[4] .

وفي حالة وفاة أحد الوالدين كوفاة الأب كانت الأم تقوم بكفالة ابنها، مثلما حصل لأحمد ابن زكري الذي توفي أبوه وهو صغير في السن فكان في حضانة أمه[5]، وفي حالة

---

[1] _ نبيلة عبد الشكور، **اسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس الى نهاية القرن التاسع للهجرة (12 _15م)**، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008، ص297.

[2] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 187.

[3] _**مرسية:** مدينة قديمة ازلية حسنة المنظر، طيبة الهواء والماء، كثيرة الخصب، بها ميناء ترسى بها المراكب الكبار والصغار. ينظر: الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الافاق**، ج 2، تح روبيناتشي، ليفيكي واخرون، مكتبة الثقافة الدينية، دس، د ب، ص 559.

[4] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 161.

[5] _ نفسه، ص 111.

وفاة كلا الوالدين كان الجد عادة ما يقوم بكفالة أحفاده فلقد كفل أحمد زروق بعد وفاة أمه وأبيه بعد سابعه جدته الفقيهة أم البنين حتى بلغ العشر سنوات[1].

هذا بالنسبة للعامة أما عند المتصوفة فقد اعتبر الزواج من مقومات الولاية، وقد عالج ابن صعد هذه المسالة فاعتبر الزواج من كمال الولاية والقيام بحق الزوجية والأولاد من حيث الانفاق عليهم وأداء حقوقهم، وهو في حد ذاته طريق إلى الزهد والورع، وبالتالي فإن الزهد في منظوره لا يعني تحريم الحلال ولكن أن يكون المرء بما في يد الله تعالى أوثق منه بما في يده[2].

لم يكن مفهوم تكوين الأسرة عند الصوفية نفسه عند العامة، فإذا كان الزواج والإنجاب عند العامة يعني بالمصطلح الحديث نموا ديموغرافيا فقط، فإن تكوين الأسرة عند المتصوفة كان يعني امتدادا للتنظيم الصوفي ضمن الطريقة الصوفية، تكون الأسرة فاعلة فيه، وذلك يعني امتداد الطريقة[3] . وهو شأن أسرة المرازقة[4] في تطوير المسار السلوكي للطريقة المدينية[5].

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 122.

[2] _ ابن صعد نقلا عن الطاهر بونابي، **روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين**، ص66.

[3] _ الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 650.

[4] _ **أسرة المرازقة:** يعود نسبهم إلى قبيلة عجيسة البربرية سميت بأسرة المرازقة نسبة إلى جدهم مرزوق حسب ما ذكره ابن مرزوق الخطيب فقال: "محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق بالقاف يكتب والدي رحمه الله". أصل هذه الأسرة من القيروان، ثم استقروا بتلمسان بعد الهجرة الهلالية، عرفت هذه الأسرة بأنها أسرة علم ودين كما كانوا أسرة متصوفة، كانوا يلبسون أجمل الثياب وبهذا يكونون قد ثاروا عن المعنى السطحي للتقشف والزهد، لهم رغبة قوية في جعل التصوف تصوفا شعبيا سنيا، ونشره على نطاق واسع والنظر إليه بالمنظار الإسلامي المتكامل. ينظر: محمد بن مرزوق، **المصدر السابق**،ص 145؛ ابن مرزوق، **المسند**، ص 15؛ عبد العزيز فيلالي، **المرجع السابق**، ص ص 399_400.

[5] _**الطريقة المدينية:** تنتسب لأبي مدين شعيب، أقدم طريقة صوفية بالمغرب الأوسط، ظهرت في بجاية خلال عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580_595هـ/1148_1199م) استمرت إلى القرن التاسع الهجري. ينظر: الطاهر بونابي، **المرجع السابق**، ص508. يعود ارتباط بيت المرازقة بالطريقة المدينية إلى خدمة أحد أجدادهم، لأبي مدين شعيب في حياته، ينظر: ابن خلدون، **رحلته شرقا وغربا**،ص248؛ التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ج2،ص 111؛المقري، **نفح الطيب**،ج5، ص412.

المطلب الثاني: مبدأ التربية وطرائق التعليم

1_تربية الأبناء والذهنيات المتعلقة بها:

ترتكز تربية الأبناء عادة على الأوامر والنواهي والعمل على غرس العادات الحميدة فيهم، حتى يكونوا أفرادا صالحين، فالأسرة هي النواة الأساسية لبناء الفرد ومنبته الذهني ومكون شخصيته الأول.

وفي هذه الفترة من تاريخ المغرب الأوسط، سادت ذهنية الولاء للولي في أوساط المجتمع، فكان لا بد للطفل الذي يعيش وسط هذا المجتمع أن يتأثر بهذا الاتجاه ويتبنى نفس ذهنيات مجتمعه ويصير متوافقا معه[1]، لقد كان أسلوب التربية السائد آنذاك وبتلقائية من الأسرة يقضي أن يكبر الأبناء على حب الأولياء واحترامهم، فقد كان الحسن الراشدي أبركان يقول: " **لم أر الخير والبركة إلا في برور الوالدين، وبرور المشايخ المعلمين**".[2]

فالتربية كانت تقوم على أسس دينية محضة أساسها الاعتقاد في الولي وكراماته، ومثلها كان التعليم، جاء في ترجمة عبد الله الشريف التلمساني أنه بشِّر في منامه وولده لا يزال في بطن أمه بأنه يزداد عنده ولد ولا يموت حتى يراه يقرئ العلم[3]، ونفس الشيء حصل لام أبو يحي الشريف التي رأت في منامها وهي حامل به أن طائرا من أحسن الطيور دخل طوقها، وخرج من أسفل ثيابها ثم أصابها عطش، فطلبت الماء فأوتيت بإناء الماء فشربت فإذا بذلك الطائر قد نزل على الإناء وشرب منه حتى كاد الإناء يفرغ، فقصت رؤياها على الشيخ، فعبرها بأنها تلد ولدا يكون عالما، فكان الأمر كذلك[4]، أما محمد الكفيف السويدي فقد حدثه

---

[1] _منصور بختي دحمور، **ظاهرة الولاية وتأثيراتها على مجتمع المغرب الأوسط**، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، دبي، 2017، ص ص 86_87.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 187.

[3] _ نفسه، ص 239.

[4] _ نفسه، ص256.

والده أنه قال لأصحابه وهو عازب غير متزوج: "**سمعت أولاد فلان في صلبه يقرؤون القرآن ويقرؤون ابن الحاجب والرسالة وكان الأمر كما قال**".[1]

2_التعليم وأهمّ متعلقاته:

بالحديث عن التعليم في هذه الفترة، نلاحظ أن سيطرة الولي على التعليم ونظامه[2] يشمل كل الجوانب المتعلقة به ابتداء من المدرسة إلى المعلمين والمناهج التعليمية ومؤسسات التعليم هذا ما أثر سلبا عليه، فازدادت الحالة الثقافية تدهورا وصار الاكتفاء بالحد الأدنى من العلم هو المطلوب، مع غلبة طابع الخرافة وغياب التجديد، وصار كل ما يذاع عن الولي أنه واقع بديهي لا مجال للشك فيه، كما أن العديد ممن تلقوا تعليمهم الأولي في الكتّاب صاروا كتابا يروجون للفكر الولائي ويكتبون عنه تبركا، منهم أبو العباس الغبريني وابن مريم التلمساني.

كان التعليم في المغرب الأوسط يمر بمرحلتين أساسيتين هما التعليم الابتدائي والتعليم العالي.

أولا_ التعليم الابتدائي: كان الهدف المتوخى من التعليم في هذه المرحلة هو تحفيظ القران الكريم وبعض مبادئ اللغة واكتساب الخط[3]، ويتم مزاولة هذا التعليم في الكتاتيب، حيث إن الصبيان يدخلون الكتاب في سن معينة تتراوح ما بين الخامسة والسابعة، والمؤدب يكون حريصا كل الحرص على تحفيظ هؤلاء القران والتلاوة الحسنة، ثم يتفقد خطهم، إضافة إلى تعليمهم أمورا العبادة مثل كيفية الوضوء والصلاة والتشديد عليهم من أجل استيعابها. كان ابن مريم كما سبق وأن ذكرنا معلما في الكتاب يقرئ التلاميذ القرآن ويعلمهم كل ما يتعلق بالعبادة.

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 481.

[2] _ منصور بختي دحمور، **المرجع السابق**، ص 88

[3] _ عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، 2005، ص 603.

لقد ذكر ابن خلدون أن هذه الطريقة في التعليم هي الأفضل، حيث رأى أن تعلم القران وحفظه هو أصل التعليم، وأول ما يجب أن يتعلمه الصبيان لأنه يبني ما يحصل بعد ذلك من الملكات حسب تعبيره[1]، كما أن العلماء قد حذروا المعلمين من معاملة الصبيان بالعنف وأخذهم بالشدة، لكي لا يعود ذلك سلبا على تحصيلهم المعرفي[2] وتنفيرهم من الكتاب فيضيعون بذلك فرصة حفظ القرآن، ولما يدرك الصبي سن البلوغ ينتقل إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة التعليم الاحترافي.

ثانيا_ التعليم الاحترافي: كانت دروس هذه المرحلة تتم في المساجد الجامعة كالجامع الأعظم بتلمسان وندرومة[3] والمدارس المشهورة، فبعد تمكن الطلاب من حفظ القران الكريم والإلمام بمبادئ المواد الأساسية الأخرى كالخط والكتابة واللغة وعلم القراءات في المرحلة السابقة، نجدهم في هذه المرحلة ينكبون على دراسة مختلف التخصصات العلمية والدينية[4]، خاصة الفقه المالكي انطلاقا من المختصرات مثل مختصر خليل ومدونة ابن سحنون[5]، وكان السلاطين وحدهم يشرفون على تعيين الأساتذة في مدارس دولتهم ويتكفلون بتغطية مستحقاتهم من أجور، والحرص على حضور مجالس دروسهم[6]، لكن هذه الظاهرة لاقت

---

[1] _ابن خلدون، **المصدر السابق**، ص 603.

[2] _القابسي أبو الحسن، **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تح أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، 1986، ص 33.

[3] _**ندرومة:** مدينة في طرف جبل تاجرا بأرض المغرب، وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار، ولها بسائط خصيبة ومزارع كثيرة، وبينها وبين البحر نحو عشرة أميال، ولها مرسى مأمون مقصود وعليه رباط حسن يتبرك به، ويقال أنه من أتى فيه منكرا لم تتأخر عقوبته، قد عرف ذلك من بركته من صنع الله فيه. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، **المصدر السابق**، ص 576.

[4] _ محمد بوشقيف، **المدرسة ونظام التعليم بالمغرب الأوسط**، دورية كان التاريخية، العدد 11، الجزائر، 2011، ص 60.

[5] _محمد بوشقيف، **نفسه**، ص 63.

[6] _عبد الحميد حاجيات، **الحياة الفكرية في عهد بني زيان**، مجلة الأصالة، العدد 26، الجزائر، 1975، ص 42.

استياء الفقهاء وذلك لان الحكام والسلاطين كانوا يتعمدون إنشاء المدارس من أجل خدمة مصالحهم السياسية المتمثلة في جذب طلبة العلم لصفهم وضمان تبعيتهم لهم.

رغم ذلك نجد أن بعض السلاطين قد بذلوا من أموالهم لأجل طلبة العلم، ومثال ذلك أن السلطان قد منح أحمد بن زكري بيتا في المدرسة التي كان يدرس بها بفرشه وأكله ومؤونته، وكان الظن السائد آنذاك أن طالب العلم الذي يحصل على إعانة من غير مشقة من دعاء الأولياء له ورضاهم عنه وخدمته لشيوخه[1].

كما كانت الرحلة العلمية تشكل مظهرا من مظاهر التعليم، فلم يكتفِ طلبة العلم بما قُدم لهم في مدارس المغرب الأوسط، بل شدوا الرحال نحو حواضر العالم الإسلامي سواء في الغرب كغرناطة[2] وفاس[3] ومراكش[4] أو نحو بلاد المشرق كالمدينة المنورة وبغداد والقاهرة[5]، مثل رحلة محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو(ت845هـ/1441م)، بهدف توسيع معارفهم وصقلها ولقاء كبار الفقهاء والعلماء لأخذ الإجازات العلمية[6]، اكتست الرحلة العلمية كذلك طابع التصوف فبعد أن كان التنقل من أجل العلم فقط صار أيضا من أجل زيارة شيوخ الطرق والتبرك بهم.

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر نفسه**، ص 113.

[2] _**غرناطة:** تقع في القسم الشمالي من الأندلس عند سفوح الجبل، حيث تكثر المنحدرات الوعرة والصخور المنضدة، وهي منطقة عليا من الوادي الكبير وروافده، حيث تقع جيان بياسة، ابدة، وبقيت هذه الرقعة منطقة نزاع بين المسلمين والنصارى. ينظر: لسان الدين بن الخطيب، **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تح محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ص 13.

[3] _**فاس:** مدينة عظيمة الشأن عاصمة المغرب الأقصى منذ الأدارسة قد يكون أول من شيد قسمها إدريس بن عبد الله بعد سنة 172هـ/789م، أما من شيد قسمها الثاني ابنه إدريس الثاني سنة 182هـ/808م ثم اتخذها عاصمة لدولته . ينظر:

[4] _**مرّاكُش:** بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف، وشين معجمة، أعظم مدينة بالمغرب وأجلها وبها سرير ملك بني عبد المؤمن، وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر. ينظر:

[5] _ **القاهرة:** مدينة بجنب الفسطاط يجمعها سور واحد وهي المدينة العظمى وبها دار الملك ومسكن الجند، وكان أول من أحدثها غلام المعز أبي تميم معد بن إسماعيل الملقب بالمنصور بن أبي القاسم نزار الملقب بالقائم. ينظر:

[6] _ عبد العزيز فيلالي، **المرجع السابق**، ص 353.

لا يمكننا ان نغفل نصيب المرأة من التعليم في هذه الفترة في المغرب الأوسط، فقد كان لها ما للرجال من حقوق التعليم، هذا ما يبرره العديد من النساء اللواتي برزن في عدة علوم، فها هي أم ابن مرزوق الحفيد حسب التمبكتي لها مجموعة من الأدعية، كما كانت لها دراية بتعبير الرؤيا[1]، وهو ما يعطي دلالة على أن المرأة لم تقلّ علما عن الرجل، كما أنه لم يكن من الخجل أن يدرك الآخرون مدى معرفة المرأة ومدى تمكنها في العلم.

لم يقتصر التعليم على القراءة والكتابة والتفقّه في العلوم الدينية فقط، بل شمل أيضا تعليم الحرفة، فمن عادتهم تعليم مختلف الصنائع للصبي في سن مبكرة، حيث كان لزاما على الأسر بأن يشجعوا أبناءهم لتعلم حرف ومهن تضمن رزقهم في المستقبل، فقد ورد في البستان أن أحمد ابن زكري وهو في سن صغير أدخلته أمه عند معلم ليتعلم حرفة الحياكة[2]. أما أحمد الزروق فقد أدخلته جدته الصنعة، فتعلم صنعة الخرز[3]. كان إدخال الأبناء لتعلم صنعة ما من واجبات الآباء اتجاه أولادهم، ويكون التعلم عند المعلم بدون أجر، وتعرف تلك الفترة بالفترة التمهينية يكتسب فيها أسرار الحرفة وأخلاقها بعد أن يبرز المتعلم إمكانياته الحرفية في ميدان العمل، يرتقي إلى مرتبة صانع بعد أن يقترحه معلمه لنيل ثقة مجلس الطائفة[4]، ويقام بهذه المناسبة حفل بين أفراد الطائفة يعرف بالتمليحة.[5]

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 378.

[2] _ نفسه، ص 111.

[3] _ نفسه، ص 122.

[4] _ **مجلس الطائفة:** تنظيم اجتماعي مهني للحرفة، تكونت على الأساس الحرفي، بحيث تفتح المجال واسعا للتعامل الاقتصادي بين مختلف الطوائف، تستقبل الطائفة الأفراد الذين يريدون تعلم صنعة من الصنائع من طرف المعلم وفي الغالب يكونون أطفالا تأتي بهم عوائلهم إلى محل الحرفة، وهي نفس ما نعنيه بالنقابة في العصر الحالي. ينظر: عبد العالي غزالي، **المجتمع التلمساني الزياني. دراسة للعادات والتقاليد والأعراف، من القرن 7ه/13م حتى القرن 10ه/ 16م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2021، ص ص 73_74.

[5] _**التمليحة:** حفل يقيمه أفراد الطائفة عندما يثبت أحد المنتمين الجدد الى الطائفة تمكنه من الصنعة، وسميت بالتمليحة نسبة إلى الملح فقد كان سائدا آنذاك قول "حق الملح اللي كليناه " دلالة على قدسية ما كان يتقاسمه أفراد الطائفة حتى

هذه بعض الذهنيات المتعلقة بالأسرة والتربية والتعليم السائدة آنذاك، وما يلاحظ أن معظمها كان متصلا بالفكر الصوفي، هذا الأخير الذي لم يقتصر تأثيره في هذه المجالات فقط بل تعدى تأثيره إلى فعاليات المجتمع من عادات وتقاليد واحتفالات، وهذا ما سنتطرق إليه في العنصر الموالي.

الطعام، وعلى أن الصانع الجديد صار منهم، وعلى إثر هذا الانضمام يصبح الصانع يتمتع بكامل حقوقه المهنية. عبد العالي غزالي، **نفسه**، ص 74.

المطلب الثالث: العادات والتقاليد

لم يغفل كتاب البستان بعض المظاهر المتعلقة بالعادات والتقاليد التي تميزت معظمها بخرافية الذهنيات وغلبة الفكر الصوفي الطرقي المنتشر آنذاك، شملت هذه العادات المأكل والاحتفالات وعادات مجتمعية أخرى.

1_عادات متعلقة بالطعام: ارتبطت العادات الغذائية لدى ساكنة المغرب الأوسط بمواسم معينة، وكان لكل موسم طعام مخصص له، كما ارتبطت أيضا بأنواع المحاصيل الزراعية التي كانت متوفرة آنذاك، كما سادت عادة تخزين الطعام لوقت الحاجة.

1_1 بعض أنواع الطعام السائدة آنذاك:

1_1_1الكسكسي: جاء في البستان في ترجمة محمد المقري أن شيخا صالحا برباط النبي إبراهيم نزل به ضيف مغربي، وطال مكوثه عنده بسبب مرضه، فرأى الشيخ في منامه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بان يطعم ضيفه الكسكسون وهو يقصد الكسكسي، وذكر أن هذا الطعام مما يعتاده المغاربة ووجه رؤيته له في المنام حسب المقري ربما نبه شهوة أورده الى عادة[1].

الكسكسي هو طعام مصنوع من السميد المطبوخ بالبخار والمسقى فيما بعد بالحليب والمرق، ذكره بن مرزوق عن جده فقال: "وربما يجعل له في أيام فطره يسيرا من الطعام الذي يعرف بالبركوكش ..."[2] كما ورد أيضا في فضالة الخوان: "يؤخذ السميد الرطب فيوضع في المعجنة ويرش بماء قد حل فيه القليل ملح ويحرك بأطراف الأصابع حتى يلتئم ببعضه

[1] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 303.

[2] _ أبوعبد الله محمد ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**، تح سلوى الزاهري، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 159.

البعض، ثم يحك بين الكفين برفق حتى يصير مثل رؤوس النمل، ثم ينفض بغربال خفيف حتى يذهب عنه ما بقي من الدقيق ويترك مروحا مغطى".[1]

تأتي هذه الأكلة في مقدمة ما يستهلكه ساكنة المغرب الأوسط، فقد كانت في بعض الأحيان تشكل وجبة الغداء والعشاء، كما كانت الطعام الرئيسي للفقراء والأغنياء على حد سواء.

1_1_2 الخبز: شكل الخبز مادة غذائية أساسية لا غنى عنها، وباختلاف ما يصنع منه إما قمحا أو شعيرا أو ذرة، وكانت له عدة أنواع إما خميرا، أو يخبز فطيرا رقيقا، كما كان الخبز عادة يرفق إما بلحوم أو فواكه أو إدام[2]. وامتنع بعض المتصوفة من إرفاق الخبز بأي شيء والاكتفاء به فقط كطعام، فقد جاء في ترجمة أحمد ابن الحاج اليبدري أنه يأكل خبز الشعير بلا إدام وقال لابنه بأنه ممن ضيقت عليه الدنيا، أي أنه مستغنٍ عن شهوات الدنيا طمعا في كسب الثواب[3] .

1_1_3 المشهدة: ذكرت المشهدة في البستان على أنها نوع من الحلوى تصنع من السميد والعسل في يوم عيد الفطر، فقد طلب أبو عبد الله الحلوى من عمته أن تصنعها له ليفطرها عنده أحد من الصالحين، وذكر أيضا أن المشهدة الجيدة الصنع تكون كثيرة الإدام[4] ، كانت معروفة في بلاد المغرب وفي تلمسان خصوصا، ولا تزال تصنع إلى يومنا هذا.

1_1_4 الفواكه: ورد في المصدر قيد الدراسة أسماء لبعض الفواكه التي كانت تستهلك في المغرب الأوسط.

---

[1] _ ابن رزين التجيبي، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، مؤسسة مطالعات، لبنان، دس، ص 87.

[2] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 25.

[3] _ نفسه، ص 80.

[4] _ نفسه، ص 162.

- **التمر:** عندما زار رجلين صالحين أحمد الغماري في المسجد فأخرج له أحدهما تمرات أكلهما طار عنه الجوع منذ تلك اللحظة، ولعل ذلك من بركة ذلك الرجل إذ كان من الأولياء[1].
- **العنب:** أما العنب فموسمه الخريف، وكان كثيرا ما يؤكل مع الخبز، فقد شاهد والد ابن مريم التلمساني في منزل محمد الكفيف السويدي في زمان الخريف طبقا فيه خبز وثلاثة عناقيد من العنب.
- **التين:** احتوت مائدة الزيانيين أيضا على فاكهة التين، التي كانت غاليا ما تغرس مع العنب، وجنيها يتم في نفس الموسم مع العنب، وكان يحي أبو السادات يملك عرصة فيها التين والعنب، وبعث خادما له يأتيه بها وأمره أن لا يأكل منها إلا قليلا، لكن الخادم زاد عن القدر الذي حدده له الشيخ فانتفخت بطنه وأشرف على الهلاك، فبعث بزوجته لتستسمحه من الشيخ، فعفا عنه الشيخ، فبرأ من حينه، وذلك من كرامات يحي أبو السادات[2]، لعل ذلك لم يكن من الكرامة، فاستهلاك كمية كبيرة من التين قد يضر بصاحبها.
- **السفرجل:** يستشف من الإشارة الواردة في البستان في ترجمة أحمد بن موسى الإدريسي أن فاكهة السفرجل كانت شائعة الاستهلاك، كما أنه كثيرا ما كان يتم غرسها في المنازل، فقد كان يملك روضة فيها السفرجل ودخل السراق لأخذ السفرجل فأخذوا منه وأرادوا الخروج فوجدوا الباب مغلقا عندما وضعوه وجدوه مفتوحا وظلوا كذلك حتى الصباح، فأتوا الشيخ فتابوا على يديه لما رأوه من كرامة[3].

1_2عادة تخزين الطعام: انتشرت عادة حفظ الطعام منذ القديم وذلك لعدة أسباب، أولها لأن بعض المحاصيل لا تكون متوفرة طول السنة مثل القمح الذي يخزن في مطامير، والتين والعنب اللذان يجففان، ثانيهما للحفاظ على الطعام لمدة أطول مثل صنع القديد،

[1] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 107.

[2] _ نفسه، ص 506.

[3] _ نفسه، ص93.

وثالثها لأن بعض ما كان يستهلكه يحتاج جهدا كبيرا لتحضيره فكان في غالب الأحيان يحضر بكمية كبيرة مرة واحدة في السنة ليتم تخزينه بعد ذلك، وإخراج ما يحتاجونه فقط وقت حاجتهم، مثل الكسكسي، كما كان الهدف من التخزين أيضا خوفا من اللصوص أو استعدادا لوقت الحروب.

وفيما يلي شرح لأسلوبين لتخزين الطعام اعتمدهما السكان في المغرب الأوسط حسب ابن مريم :

1_2_1المطامير: المطمورة مفرد وجمعها مطامير: وهي حفرة تحفر في الأرض خفيا توسع أسافلها لتخبأ فيها الحبوب كالبر والفول والقمح، وتبقى بداخلها بكرا دون أن تتغير لأن الهواء لا يصيبها، والمطمور لا تحفر من أجل تخزين الحبوب لفترات قصيرة كالأربعة اشهر والخمسة بل لأكثر من ذلك بكثير قد يدوم لسنوات[1].

ويبين البستان أن هذا الأسلوب في تخزين الطعام كان سائدا في المغرب الأوسط، فقد ذكر أن محمد الأدغم السويدي كانت له مطمورة لولده، فجاء بعض العرب يريد أن يخزن فيها رغما عن محمد الأدغم السويدي، وتزامن هذا مع وجود الترك الذين أرادوا أخذ العلف من الدوار، فتقاتل العرب مع الترك، وأخذ ذلك العربي ضربة برصاصة من الترك فمات من ساعته جزاء فعلته مع الشيخ[2].

1_2_2 القديد: يتم إعداد القديد بتقطيع اللحم شظايا طويلة أرق ما يمكن، وتوضع في معجنة ويوضع ما يكفيه من خل ثقيف وملح نقي مدروس ويحرك ساعة بعد ساعة من غدوة إلى وقت الظهر، ويترك على حاله بقية اليوم والليلة، ثم يعلق حبل للشمس ويترك في الحبل إلى بعد الظهر، ويزال من الحبل ويغطى في غربال بشيء خفيف، ثم يعاد الى الحبل

[1] _ الونشريسي أحمد بن يحي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**، تح محمد حجي واخرون، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1981، ج9، ص 108.

[2] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 483.

للشمس في اليوم الذي بعده، يعمل كذلك أياما حتى يتم تجفيفه وتيبيسه وتذهب رطوبته، ويرفع في موضع لا يمسه فيه شمس ولا نداوة وقد يعمل بالماء والملح ويجفف في الشمس[1].

وفي النص المناقبي الذي بين أيدينا ذكر القديد في جزء كرامات يحي أبو السادات الذي قال ولده أن طائر الحدأة أراد أن يأخذ من القديد الذين نشره أهل بيته فقال له الشيخ: ثم تقف حتى ترمي القديد فوقف في الهواء ولم يقدر على الطيران فرمى القديد ولم يستطع الطيران حتى مات[2].

2_ عادات احتفالية: الملاحظ أن الزيانيين أولوا اهتماما كبيرا بالاحتفالات والأعياد، سواء كانت دينية كعيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف، أو احتفالات كانت متعلقة بحياتهم اليومية كولائم الزفاف وغيرها .

2_1 الأعياد الدينية: كان للأعياد الدينية طقوس خاصة بها، كما كان لها أصناف طعام تحضر خصيصا لها

- **عيدي الفطر والأضحى:** لا يغفل كتاب البستان بعض المظاهر الاحتفالية بهاذين العيدين، فقد ذكر في أكثر من موضع إحالات حولهما. وها هو الشيخ حسن أبركان رغم تصوفه وزهده في الحياة إلا انه كان يغدق على أهله في تلك الأيام تعظيما منه لحرمتها[3] كما أن أبا عبد الله الحلوي قد طلب من عمته أن تصنع له مشهدة في عيد الفطر، كما سبق الذكر وهذا يدل على أن هذه الحلوى كانت تقدم في الأعياد فالسائد آنذاك مشاركة الطعام في الأعياد.

وفي عيد الأضحى كما هو معلوم يكون الاهتمام بالأضحية تطبيقا لسنة النبي إبراهيم عليه السلام، تبرز فيه مظاهر التكافل الاجتماعي، فشراء كبش العيد لم يكن متاحا لكافة

[1] _ ابن رزين التجيبي، **المصدر السابق**، 273.

[2] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 506.

[3] _ نفسه، ص 195.

فئات المجتمع، فتتكفل الفئات الميسورة بشراء الاضحية للمحتاجين وفي أحيان كثيرة كان السلطان هو من يتكفل بشراء الاضاحي لرعيته[1].

أما فيما يخص صلاة العيدين فكانت عادة تقام خارج المساجد تأسيا بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعادة ما كان السلطان يقوم بالدعاء بعد الصلاة لرعيته، وكما هو متعارف فقد كان السلطان هو أول من ينحر أضحيته أمام المصلين ليذهبوا بعد ذلك الى بيوتهم لنحر أضاحيهم أيضا[2].

وبذكر صلاة العيد كانت تقام في الملعب الذي يقع خارج أسوار المدينة، أما باب القرمادين[3] يحضرها الزيانيون من كل الأعمار والفئات الاجتماعية، يتقدمهم السلطان في موكب حافل مميز، ويخرج الناس لرؤية الموكب بلباس جديد ولا سيما الأطفال الذين يبدون مبتهجين بالعيد بألعابهم المصنوعة من الخشب والدمى[4].

أما أصحاب الطرق الصوفية، رغم أنهم كانوا يشاركون عائلاتهم فرحة العيد إلا أنهم كانوا يتوجهون في اليوم الموالي إلى الاضرحة والقبور للزيارة والتضرع.

- **المولد النبوي الشريف:** عرفت عادة الاحتفال بالمولد النوي الشريف في المغرب الأوسط من العهد الزياني وبالضبط في عهد أبو حمو موسى الثاني في تلمسان(760هـ_792هـ/1357م_1389م)، كان الاحتفال الرسمي يبدأ من قصر المشور[5]

---

[1] _ أحمد بن محمد التلمساني المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، ج 4، تح إحسان عباس، دار الكتاب العربي، بيروت، د س، ص 358.

[2] _ الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان**، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011، ص150.

[3] _ **باب القرمادين:** يقع باب القرمادين في الشمال الغربي من مدينة تلمسان، ويعتبر الحصن الدفاعي الأساسي الذي يحمي مدخل المدينة من هذه الناحية التي بها المنية والملعب، كان بالقرب منه افران لصناعة القرميد لذلك سمي باسمها, ينظر: عبد العزيز فيلالي، **المرجع السابق**، ص 128.

[4] _ سهيلة دهمش، **المرجع السابق**، ص 22.

[5] _ **قصر المشور:** شيده السلطان يغمراسن في بداية عهده بجانب المسجد الجامع بجنوب مدينة تلمسان، وهو عبارة عن قلعة أو قصبة، وسماه المشور، تمييزا له عن القصر القديم الذي كان أمام الجامع، فاتخذه مقرا رسميا لإقامته وإقامة خلفائه من بعده، ولاستقبال الوفود، وإقامة الاحتفالات فيه، ينظر: عبد العزيز فيلالي، **المرجع السابق**، ص 125.

في العاصمة الزيانية، بحيث يجلس السلطان ومعه العمال والحاشية مزينين متطيبين، كما تزين القاعة التي يجري فيها الاحتفال بثريات كبيرة مضاءة، للاستماع للمدائح الدينية وقراءة القرآن، هذا بالنسبة للسلاطين، أما العامة فكانوا يحتفلون بالخروج إلى الأسطح وزغاريد النساء، كما تقوم النساء أيضا بالطبخ لهذه المناسبة في حين يذهب الرجال إلى المساجد بعد صلاة العصر أو صلاة المغرب، للاستماع للطلبة الذين ينشدون مدائح من قصائد صوفية التي كانت غالبا ما تدوم 24 يوما لطولها[1] .

ومن المظاهر الاحتفالية بالمولد النبوي أيضا التوجه إلى قرية العبّاد وزيارة ضريح أبي مدين شعيب، تكون هذه الزيارة مصحوبة بالذكر بأصوات عالية وقرع للطبول وعزف للمزامير، أما الأطفال فقد كانوا يحتفلون بشراء الشموع وإهدائها لمؤدبيهم[2].

اهتم الزيانيون بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف نتيجة للمتخيل الذهني عندهم، تكمن هذه الأهمية في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم في يوم ولادته واستحضار الذات الإلهية في هذا التعظيم، فأصبح قناعة راسخة في أذهان ساكنة المغرب الأوسط وعقيدة دينية ثابتة.

كان للفقهاء راي آخر في هذه المظاهر الاحتفالية، فكما هو ملاحظ فقد خرج الاحتفال بهذه الأعياد نطاق الشريعة الإسلامية، واكتسبت صبغة غير إسلامية تشوبها البدع، فمثلا الاحتفال بالمولد النبوي بدعة، فلم يحتفل به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا صحابته الكرام ولا التابعين من بعدهم.

2_2 الأعراس: كان للأعراس في العهد الزياني طابعها الخاص، فقد اتسمت معظمها بالطابع الذوقي، فبعد أن تتم المراحل الأولى من الزواج من خطبة وعقد شرعي، يبدأ التحضير للحفل.

كانت الأعراس في غالبها تدوم سبعة أيام، ويكون اليوم السابع هو اليوم الذي تزف فيه العروس إلى بيتها[1]، وترافقها في ذلك النسوة من أهلها متزينات متطيبات .

[1] _ عبد العالي غزالي، **المرجع السابق**، ص30.

[2] _ الونشريسي، **المصدر السابق**، ص 278.

ومن العادات البارزة في الأعراس الوليمة، فقد خصص اليوم الأول لذبح الشياه، أما اليوم الثاني فكان لاستقبال الضيوف، كانت غالبا ما يرافق هذه الاحتفالات مجالس الغناء والرقص، وكانت بعضها مختلطة بين النساء والرجال[2]، وهوما أثار حفيظة الفقهاء، لما في ذلك من تعد صريح على مبادئ الشريعة الإسلامية.

كان الكثير منها تميز بالبذخ والإسراف، خاصة في ولائم الطبقة الخاصة والسلاطين وفي الحواضر، أما في البوادي فقد اتسمت بالبساطة وغياب التكاليف الباهظة.

كما ورد في البستان أن المتصوفة كانوا كثيرا ما يعينون فقراءهم ومريديهم، عند رغبتهم في الزواج، تشجيعا لهم على الحلال وترك المعاصي، وهوما فعله

3_عادات مجتمعية أخرى: جاء كتاب البستان ببعض العادات الخاطئة السائدة آنذاك، والتي كان معظمها يصب في قالب خرافي تسوده الأسطورة والتفسير اللاعقلاني.

3_1عادة المقص: ورد في ترجمة علي التالوتي أن الرجل لا يأخذ المقص من صاحبه بل يضعه على الأرض ثم يأخذه صاحبه، وقد سئل الشيخ حسن أبركان عن هذه العادة فأجاب بأنه رأى شيوخه يفعلونها[3].

3_ 2 شراء الثور المعلوف في يناير: من عادة الزيانيين شراء الثور المعلوف في يناير، يبدو هذا من مظاهر الاحتفال بهذا الشهر، وفي ترجمة الشيخ محمد المعروف بالقلعي وردت هذه العادة، فقد كان لرجل ثلاثة ثيران معاليف وسمع به أهل القرى من أهل الصفصيف[4]

---

[1] _ ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص192,

[2] _ كمال السيد أبو مصطفى، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مكتب الإسكندرية للكتاب، مصر، 1992، ص 15.

[3] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 273

[4] _**الصفصيف:** أو سطفسيف نهر تلمسان، وهوينبعث من أسفل جبل البغل، ويصب في بركة عظيمة من عمل الأول، ثم ينشق منه الى موضع يسمى المهراز أو المهماز ثم ينصب في أنهار كثيرة ثم يصب في البحر. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، لبنان، 1984، ص318.

وأهل زيدان وأهل الحناية فجاؤوا لشرائه، عند شرائه يتم تزيينه وتضرب من أجله آلات الطرب.[1]

3_3 التكافل الاجتماعي: سادت ظاهرة التكافل الاجتماعي في المغرب الأوسط، والجدير بالذكر أن العمل الخيري الذي قام به الأولياء بالمغرب الأوسط سواء كان مرتبطا بكرامة أم لا، فرصة لتقربهم من المجتمع البسيط الذي سادت فيه ذهنية الولاء للولي واكتسابهم ثقة هذا المجتمع، إلا أننا لا يمكن أن نغفل أعمالهم في إطار التكافل مهما كانت بسيطة، فأبو مدين شعيب كان يوزع الصدقات على اليتامى والفقراء[2]، أما الشيخ أبو زكريا الزواوي قسم كل يملكه من مال أيام المجاعة في بجاية، وفي نفس السياق نجد أحمد بن الحسن الغماري الذي كان يسقي الناس الماء في ندرومة أيام الحر[3]، بل ولشدة رأفتهم كان منهم من يرأف بالأطفال والضعاف من المجتمع فقد عرف سيدي الحلوي بهذا الاسم لأنه كان كثيرا ما يوزع الحلوى على الاطفال[4] كما قاموا بأعمال عظيمة، فها هو إبراهيم بن علي الخياط يدخل أكثر من سبعين مرة على الأمير يغمراسن بن زيان لقضاء حوائج الناس حتى وصف بأنه رحمة[5] . بل أكثر من هذا فقد ضحى بعضهم للمبيت في مكان مخيف لتأمين المكان خاصة في الطرق لتأمينها المسافرين وعابري السبيل[6].

3_4 زيارة الاضرحة والتبرك بها: سادت ذهنية التبرك بالقبور وأضرحة الأولياء الصالحين في المجتمع الزياني نتيجة اعتقادهم بأن الله سبحانه وتعالى ينزل البركة بها، كما أن الدعاء

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 461.

[2] _ شرقي نوارة، **الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين(524هـ_667هـ/1126_1266م)** أطروحة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2007، ص 109.

[3] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ، ص 102.

[4] _نفسه، ص 161.

[5] _نفسه، ص 142.

[6] _أبو العباس الونشريسي، **المصدر السابق**، ج2، ص 403.

مستجاب عندها، لاعتقادهم بكرامات ما بعد الموت، فالولي الصالح لا تنقطع كراماته بعد موته وإجابة الدعاء عند قبره واحدة من هذه الكرامات.

ارتبطت زيارة القبور بطقوس معينة، كلمسها وتقبيلها وتقبيل أعتاب مشاهدها والتمسح بها وتوزيع الصدقات عندها رجاء القبول[1].

وقد جاء في كتاب البستان إشارة الى هذه العادة في أكثر من موضع، فقد كان قبر أحمد ابن مرزوق مشهور يقصد للتبرك[2] والدعاء عنده، ومثله كان حمزة المغراوي، فقد كان الدعاء عند ضريحه مستجاب.[3]

لم تقتصر عادة زيارة القبور والتبرك بها على عامة الناس فقط، بل تعدت إلى السلاطين الذين كانوا كثيرا ما يلجؤون إلى الدعاء عند القبور عند حدوث الأزمات، قد كان يغمراسن كثير التردد إلى قبر إبي مدين شعيب بالعباد كلما اشتد به الحال إزاء الأزمات كالحروب والحصار قصد التبرك[4] .

3_5 الاستشفاء: من المنطقي أن يبحث المريض عن علاج لمرضه بكل الوسائل المتاحة له سواء المادية أو المعرفية، إلا أن هذا لا يصوغ للمريض أن يسلك طريق الاستشفاء من دون إعمال العقل، والاستناد لطرق لا عقلانية مظللا تصرفه تحت جناح الازمة .

إن ظهور الطبّ الصوفي وهيمنته على الأساليب العلاجية الأخرى حتى وإن كان في معظمه نابعا من ذهنية ساكنة المغرب الأوسط التي كانت تعتقد اعتقادا شبه مطلق في قدرة الولي وكراماته راجع إلى عدة أسباب، أهمها قصور الطب العلمي، ونقص فعالية الدواء المقدم، ناهيك عن ارتفاع تكاليف العلاج والدواء في آن واحد حيث لم يكن بإمكان الجميع توفيرها.

---

[1] _ عبد العالي غزالي، **المرجع السابق**، ص 205.

[2] _ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 95.

[3] _ نفسه، ص 202.

[4] _ عبد الرحمن ابن خلدون، **المصدر السابق**، م 7، ص 87.

تباينت طرق العلاج بين الدعاء للمريض والرقية وبين المسح او البصاق موقع المرض، وقد جاءت النصوص المناقبية ثقيلة بحالات الاستشفاء عند الأولياء، فصاحب البستان قد ذكر في ترجمة الحسن الراشدي أبركان أن الشيخ محمد بن توزينت خرجت له أكلة في خده ولم يجد لها علاج، وعنما لقي الشيخ الحسن أبركان وشكا له مرضه طلب منه أن يبسط يده فبصق له فيها ثم وضعها على موقع الاكلة فبرئ من حينه[1]، كما كان حمزة المغراوي[2] واخدموم الشريف[3] ذوي قدرة على شفاء العاهات والأمراض فما زارهم ذو عاهة أو مرض إلا وشفي منها.

كما شاع طقس علاجي آخر ما يعرف بالمسح المشفوع بالدعاء، بالمسح مكان المرض ثم الدعاء أو العكس بالدعاء ثم المسح على مكان المرض، ففي مناقب الشيخ أبي يعزى ورد أنه قد عالج فتى كان لا يقدر على المشي، من خلال شهادة الفقيه أبي عمر الذي قال: "**جئنا إلى المسجد، فوجدنا الشيخ فيه-أبي يعزى- ومعه خلق كثير، فدخلنا المسجد، فإذا الناس بين متعجب وخاشع أو باكٍ أو داعٍ أو ذاكرٍ لله تعالى، فقلنا لهم مالكم؟ فأشاروا الى صبي، فقال هذا الصبي جيء به محمولا مقعدا من وركيه فدعا له الشيخ ثم تفل الشيخ في يده وجرها على وركيه ثم أخذ بيده فاستوى قائما، فنظرنا إلى الصبي يمشي**"[4].

كما ورد في نفس المصدر أن أمة مجنونة جاء بها مولاها إلى المسجد وقال للشيخ شكايتها وبيده عصا، فقال للأَمَة انظر وبسط كفه وأصابعه وأمسك عصاه بالإبهام والسبابة فصرعت لما نظرت إليه ثم ناحت، فقال لها أتنوحين في بيت الله؟ وطلب منها أن تولول فولولت ثم دعا لها فبرئت من حينها[5].

---

[1] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 180.

[2] _ نفسه، ص 202.

[3] _ نفسه، ص 223.

[4] _ أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتيقن**، تح أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، المغرب، د ط، 1989، ص 51.

[5] _ ابن مريم التلمساني، **المصدر السابق**، ص 52.

إن نجاعة الأساليب العلاجية السابقة الذكر في شفاء العديد من الأمراض، ونظرا للذهنية السائدة آنذاك التي تعتقد اعتقادا جازما بفعالية العلاج الكرامي، جعل من الأشخاص العاديين في كثير من الأحيان هم المروجين لهذه الأساليب العلاجية، مما ساهم في استقطاب الناس والاعتراف بسلطة الولي الواسعة آنذاك.

نجد مما سبق ان المجتمع في المغرب الأوسط تميز بميوله نحو الأفكار الولائية والاعتقاد الجازم بها، وهذا ما يظهر جليا من خلال طريقة عيشه وعاداته فيما يخص التربية والتعليم والاحتفال وعادات أخرى.

الخاتمــة

الخـاتمـة

وفي الختام وبعد دراستنا لموضوع ذهنيات سكان المغرب الأوسط من خلال كـتاب البستان لابن مريم التلمساني، استخلصنا النتائج التالية:

❖ عاش ابن مريم في تلمسان في أواخر عهد الدولة الزيانية، ميزه اضطرابات سياسية ميزها التدخل الأجنبي التركي والإسباني، لم يمنع هذا من وجود نهضة ثقافية صاحبها انتشار للتصوف والمتصوفة.

❖ ترتبط المناقب بالتاريخ ارتباطا وثيقا، كما تسمح لما المؤلفات المناقبية من رصد حياة أشخاص يمكن من خلالها استنباط الواقع المعيشي آنذاك وما يتعلق به من ظروف سياسية واجتماعية وثقافية.

❖ تمثلت المرجعية الفكرية للفقهاء في ثلاثة عناصر أساسية هي العقيدة الأشعرية، الفقه المـالكي، والسـلوك الصـوفي، هـذه المرجعيـة هـي التـي حـددت آراء الفقهـاء فـي السـلاطين وحددت كذلك علاقتهم بكل ما يتعلق بالحياة السياسية.

❖ شهد القرن 11/10هـ جنوحا كبيرا الى التصوف، انتشرت من خلاله مظاهر الزهد.

❖ برز في الفترة ذاتها الصوفية على الفقهاء، فصار لهم أتباع ومريدون، وهذا لسببين، إما لأن ذهنية الفرد في المغرب الوسط كانت تقدس الولي، ولأنه في كثير من الأحيان كان الفقهاء هم نفسهم أولياء.

❖ لم تكن النساء بعيدة عن التطورات الحاصلة في مجتمعهم، فلقد ذكرت لنا المصادر عن وجود نساء متصوفات بلغن من الدور ما بلغه الرجل الصوفي، لكنها كانت دائما محل انتقاد من قبل الفقهاء لما راوه من تعد على مبادئ الشريعة الإسلامية.

❖ انتشرت ظاهرة البيوتات الصوفية في المغرب الأوسط، مما أثر إيجابا على نساء هذه البيوتات، فقد ألزمها التوجه الصوفي داخل أسرتها أن تحافظ على مبادئ الشريعة كما كان لها ما للرجال من أسرتها في الميراث والعطايا.

❖ اتجهت النساء أيضا إلى تبني السلوك الصوفي الزهدي، والطقوس الصوفية، كما راحت تساهم في تأسيس الزوايا .

❖ كانت الذهنيات السائدة آنذاك، تعظيم الاولياء، فحتى السلاطين كانوا على درجة مهابة كبيرة منهم، وأبدوا لهم كل الاحترام والتقدير، وصاروا يعتقدون فيهم.

❖ تباينت نظرة المتصوفة إلى الحكم، فمنهم من كان يتطلع إلى الحكم ويحاول كسب ثقة السلاطين، ومنهم من كان يتحاشى المناصب السياسية خشية من الله تعالى.

❖ تعددت كرامات الأولياء لتشمل القضاء على الخوف، تكليم الحيوانات، إرجاع المريض، إجابة الدعاء وغيرها.

❖ كما شاعت المكاشفات بين الأولياء، مما فسح الطريق أكثر لإثبات قدرتهم وحقيقة ولايتهم، وعمقت الاعتقاد السائد بين طبقات المجتمع فيهم.

❖ اعتمد هذا الأخير على الفكر الصوفي في مواجهة مختلف الأزمات، وذلك راجع الى ذهنية الفرد آنذاك التي كانت ترى في الولي الصالح بر الأمان.

❖ من شدة ولع العامة والمريدين بشيوخ الطرق الصوفية، شاع الجنوح إلى التقليد مما آثر سلبا على التعليم والإنتاج العلمي على حد سواء.

❖ أما في الحياة الاجتماعية فكان تأثير ظاهرة الولاية باديا فيها، بداية من تأسيس الأسرة إلى الزواج وتربية الأبناء، فقد كان سائدا التفكير الصوفي حول الأسرة باعتبارها امتدادا لهذا التيار، خاصة مع ظهور البيوتات الصوفية.

❖ وفي مجال التعليم أيضا، كان للتصوف حظ وافر منه فبجانب العلوم الأخرى كان التصوف يدرس بصفته علما قائما بذاته.

❖ انتشرت المدارس في ذلك العصر، خاصة في تلمسان الزيانية، وكانت غالبا ما تبنى لأجل فقيه أو ولي وتنسب إليه، إضافة الى مؤسسات تعليمية أخرى تمثلت في المدرسة والزاوية.

❖ سادت عادات متعلقة بالأكل والاحتفالات المجتمعية والدينية، ميزها الطابع الصوفي في معظم الأحيان.

❖ كما سادت عادات أخرى كالتكافل الاجتماعي والاستشفاء بدعاء الأولياء والتبرك بأضرحتهم.

❖ وفي الأخير نصل الى ان ظاهرة الولاية قد غيرت من ذهنية ساكنة المغرب الأوسط، دينيا فقد تحول من المذهبية الدينية إلى المذهبية الطرقية الولائية التي جعلت من الأولياء مرجعيتهم قبل الفقهاء، صنعت هذه المرجعية عادات وأعرافا وتقاليدا بالية أساسها الاعتقاد في الولي.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

ثانيا: الأحاديث النبوية

- البخاري، **صحيح البخاري**، ط1، دار الجبل، بيروت، 1992.

ثالثا: المصادر

1) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ج2، د ط، تح روبيناتشي ، ليفيتي و آخرون، مكتبة الثقافة الدينية ، د ت ن.

2) الاغا بن عودة المزارري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا** إلى أواخر القرن 19 ، تح يحي بوعزيز، د ط، دار الغرب الإسلامي، لبنان، د ت ن.

3) البرزلي أبو القاسم، **جامع مسائل الاحكام لما نزل من المفتيين و الحكام** ،تح محمد الحبيب،ج4، د ط، دار الغرب الاسلامين المملكة المغربية، 1965.

4) البرزلي احمد بن عبد الرحمن، **مختصر فتاوى البرزلي**، أخرجه أبو الفضل الدمياطي، ج6، ط1، مؤسسة الرسالة ، سوريا، 1983.

5) التلمساني ابن مريم، **البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان**، تح عبد القادر بوباية ، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2014.

6) التلمساني أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**، تح سلوى الزاهري، ط1 منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ، 2008.

7) التجيبي ابن رزين، **فضالة الخوان في طيبات الطعام و الألوان**، د ط، مؤسسة مطالعات ، لبنان، د ت ن.

8) التلمساني ابن صعد، **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب** ، تح محمد أحمد الديباجي، ط1، دار صادر، لبنان، 2011.

9) التنسي محمد بن عبد الله، **نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان** ، تح محمود أبو عياد، د ط، المؤسسة الوطنية للمتاب، الجزائر، 1985.

10) التنبكتي احمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تح عمر علي، ج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1998.

11) الجرجاني علي بن علي، **معجم التعريفات**، تح محمد صديق المنشاوي، د ط، دار الفضيلة، مصر، د ت ن.

12) الحفناوي، **تعريف الخلف برجال الس**لف، تقديم محمد عبد الرؤوف القاسمي، ج1، د ط، د ت ن.

13) ابن حزم محمد الظاهري الأندلسي، **جمهرة انساب العرب**، تح عبد السلام هارون، د ط، دار المعارف، مصر، 1962.

14) الحميري محمد عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح احسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، لبنان، 1984.

15) ابن حوقل، **صورة الأرض**، د ط، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1996.

16) ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.

17) **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تح محمد شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003.

18) ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**، تح كاترمير، د ط ، مكتبة لبنان، 1996.

19) **_،التعريف بإبن خلدون و رحلته شرقا و غربا**، د ط، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، لبنان، 1979.

20) **_،شفاء السائل و تهذيب المسائل**، تح محمد مطيع الحافظ، د ط، دار الفكر، سوريا، 1996.

21) ابن خلدون يحي، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980.

22) الذهبي شمس الدين، **سير أعلام النبلاء**، تح إبراهيم الزيبق، ج 15، د ط، مؤسسة الرسالة، سوريا، 1983.

23) الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تح محمود متضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.

24) زروق احمد، **عدة المريد الصادق**، تح إدريس تمروزي، ط1، مطبعة فضالة المحمدية، مصر، د ت ن.

25) العزفي أبو العباس، **دعامة اليقين في زعامة المتيقن**، تح أحمد توفيق، د ط، مطبعة خدمة الكتاب، المملكة المغربية، 1989.

26) القابسي أبو الحسن، **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين و المتعلمين**، تح احمد خالد، د ط، الشركة التونسية للتوزيع، 1986.

27) القسنطيني ابن قنفذ، **أنس الفقير و عز الحقير**، تح محمد الفاسي، دط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، المملكة المغربية ، 1965.

28) القلقشندي احمد بن عبد الله، **مآثر الإنافة في علوم الخلافة**، تح عبد الستار احمد فراج، ج2، د ط، مطبعة حكومة الكويت، 1985.

29) كربخال مارمول، **إفريقيا**، تر محمد حجي محمد زنيبر و آخرون، ج2، دار نشر المعرفة للنشر و التوزيع، المملكة المغربية ، 1984.

30) ابن منظور، **لسان العرب**، ج5، ط1، دار صادر، لبنان، د ت ن.

31) المقري احمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تح إحسان عباس، ج4، دار الكتاب العربي، لبنان، د ت ن.

رابعا: المراجع

أ. الكتب:

1) أبو مصطفي كمال السيد ، **جوانب من الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل و فتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، د ط، مكتبة الإسكندرية للكتاب، مصر، 1992.

2) الجيلاني عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، تاريخ الجزائر العام ، ط4، دار الثقافة للنشر ، لبنان، 1980.

3) بن عامر أحمد ، **الدولة الحفصية**، د ط، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974.

4) داود أنس، **الأسطورة في الشعر العربي الحديث**، ط3، دار المعارف، مصر، 1992.

5) دحمور منصور بختي، **ظاهرة الولاية و تأثيراتها على مجتمع المغرب الأوسط**، ط1 ،صفحات للدراسة والنشر و التوزيع، دبي، 2017.

6) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، المجلد 2، د ط، دار الرشاد الحديثة، المغرب، د ت ن.

7) سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998.

8) سعيدوني ناصر الدين، **من التراث التاريخي و الثقافي للغرب الإسلامي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1999.

9) شاوش رمضان، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ج1، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2011.

10) قنان جمال، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر1500_1830**، د ط، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987.

11) قيسوم عبد الرحمن، **عبد الرحمن الثعالبي و التصوف**، د ط ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، د ت ن.

12) محمود احمد بكر، **المدرسة الظاهرية بالمشرق و المغرب**، ط1، دار قتيبة للطباعة و النشر و التوزيع، لبنان، 1990.

ب.الموسوعات و المعاجم:

1) نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر**، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان، 1980.

2) نضار سيد احمد ، مصطفى محمد، وآخرون، **المعجم الوسيط**، د ط، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة، د ت ن.

3) مسعود جبران، **معجم الرائد** ، المجلد 2، ط4، دار العلم للملايين، لبنان، 1971.

4) **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2008.

5) **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، ج2، ط2، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، 1989.

ج.المجلات و الدوريات:

1) بلحميسي مولاي، **نهاية دولة بني زيان**، "مجلة الأصالة"، العدد 26، الجزائر.

2) بن حمادة سعيد، **جوانب من الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية بالغرب الإسلامي من خلال كتاب تحفة الناظر للقاضي العقباني التلمساني**، "مجلة عصور الجديدة" ، العدد 5، 2012.

3) بن حود أيوب، بلقاسم مالكية، **أدب المناقب المفهوم و الجذور**، "مجلة مقاليد"، العدد10، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2016.

4) بوباية عبد القادر، **عرض و تقديم كتاب البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان لإبن مريم المديوني**، جامعة وهران، د ت ن.

5) بوعزيز يحي، **المراحل و الأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية** ، "مجلة الأصالة، العدد 26، الجزائر.

6) بونابي الطاهر، **أهمية المخطوطات المناقبية في كتابة التاريخ الاجتماعي و الثقافي والفكري للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط**، "المجلة الجزائرية للمخطوطات"، د ت ن.

7) حاج محمد أسماء، **المعتقدات الخرافية في بلاد المغرب في العصر الوسيط**، "مجلة مدارات التاريخية"، العدد3، الجزائر، 2021.

8) خليفي زوبيدة، **حركة التأليف التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة، 2005.

9) سعيد محمد، **الإمكانيات و محدودية النص المنقبي في الكتابة التاريخية مناقب ابي إسحاق الجينياني أنموذجا**، مخبر البحوث و الدراسات التاريخية و الاجتماعية ، العدد6، جامعة معسكر ، الجزائر، د ت ن.

10) سمراد سمير يحي، **التأليف الفقهي عند إبن مريم التلمساني دواعيه و سماته**، "المجلة الجزائرية للمخطوطات"، العدد1، الجزائر، 2021.

11) لدرع امال، **الخطاب المناقبي و صياغة الحدث التاريخي**، "مجلة منتدى الأستاذ"، العدد 18 المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة، الجزائر، 2018.

د. الرسائل الجامعية

1) بكاي هوارية، **العلاقات الزيانية المرينية سياسيا و ثقافيا**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر،1999_2000.

2) بن حود أيوب، **أدب المناقب في كتاب سكردان السلطان لإبن أبي حجلة التلمساني**، أطروحة ماجستير في اللغو و الأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2008_2009.

3) بونابي الطاهر، **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين 14_15م** ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، جامعة الجزائر ، 2008_2009.

4) حمزة عبد الصمد، **أهل الذمة في الدولة الزيانية**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ و الحضارة الإسلامية ، جامعة وهران، الجزائر، 2016_2016.

5) دهمش سهيلة، **العادات الاحتفالية مساهمة في التاريخ الديني و الاجتماعي للمغرب الأوسط الزياني(633_962هـ/1235_1555م)**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، 2014_2015.

6) شرقي نوارة، **الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (524_667هـ/1126_1266م)**، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2007.

7) عبد الشكور نبيلة، **إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري،(12_15م)** ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الجزائر، 2007_2008.

8) غزالي عبد العالي، **المجتمع التلمساني دراسة للعادات و التقاليد و الأعراف من القرن 7هـ_13م الى القرن 10م_16م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد ، الجزائر ، 2020_2021.

9) كرطالي أمين ، **الفقهاء و الحياة السياسية في المغرب الأوسط خلال القرنين (9_10هـ/15_16م)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ و الحضارة الإسلامية ، قسم الحضارة الإسلامية ، جامعة وهران، الجزائر، 2013_2014.

10) مفتاح محمد، **التيار الصوفي و المجتمع في الأندلس و المغرب أثناء القرن 8هـ/14م** ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامع محمد الخامس ، المغرب، 1998.

هـ.الملتقيات:

1) التوفيق أحمد، **تاريخ و أدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى** ، الملتقى الدراسي ، الرباط ، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة عكاظ، المملكة المغربية، 1989.

2) مفتاح محمد، **الواقع و العالم الممكن في المناقب الصوفية ضمن التاريخ و أدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ملتقى دراسي، المملكة المغربية ، 1988

الفهرس

الفهرس:

الموضوع	الصفحة
إهداء	–
شكر وتقدير	–
قائمة المختصرات	–
المقدمة	أ – ز
المبحث التمهيدي	15 – 39
المطلب الأول: التعريف بابن مريم التلمساني	16
المطلب الثاني: التعريف بكتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان	25
المطلب الثالث: الكتابة المناقبية وأهميّتها في الكتابة التاريخية	33
المبحث الأول: الذهنيات وجدلية الحياة والتصوّف	40 – 59
المطلب التمهيدي: المرجعية الفكرية للفقهاء والمتصوفة	41
المطلب الأول: التصوّف والجنوح إلى حياة الزهد	43
المطلب الثاني: الزّهد عند النّساء	46
المطلب الثالث: مخالطة السلاطين واختلاف الذهنيات حولها	51
المبحث الثاني: الذهنيات وتقديس الشيوخ وتقليدهم	60 – 83
المطلب الأول: الطقوس الصوفية وصناعة المريد	61
المطلب الثاني: تقديس شيوخ الطّرق	70
المطلب الثالث: الجنوح إلى التقليد	79
المبحث الثالث: الذهنيات والحياة الاجتماعية	84 – 107
المطلب الأول: الذهنيات والأسرة	85
المطلب الثاني: مبدأ التربية وطرائق التعليم	90
المطلب الثالث: العادات والتقاليد	96
الخاتمة	108
المصادر والمراجع	112
الفهرس	121